في أدب الطفل الجزائري

قراءات نقدية جمالية

عبد الله لالي

2022

بسم الله الرّحمن الرّحيم

قراءات نقديّة في أدب الطّفل الجزائري

إلى كتاب أدب الطّفل في
الجزائر والعالم العربي..
أنتم تمرعون في جنان الكلمة
الدافئة التي تداعب أزهار
العمر الغضّة، وتحيون في جنّة
الدنيا قبل جنّة الآخرة ..

كاتبة الأطفال الجزائريّة جميلة يحياوي

"وكما لو أنّ يداً سِحرِيةً تدخلتْ، بدأتْ أشجارُ الشّارِعِ تتلألأ شيئا فشيئا، حتّى بلغت قمّة وَهَجها، فتحوّلتْ ظُلمةُ اللّيل إلى نور يخطف الأبْصارَ بجماله، وتحوّلتْ نباتاتُ الزيّنة الموجودة على حوافِ النوّافذِ والشُرُفاتِ إلى مصابيحَ ذاتِ أضواءٍ مختلفةِ الألوانِ، فمِنها الأخضرُ ومنها الأصفرُ ومنها البرتقالي " ـــ من رواية (أشجار الأحلام).

جميلة يحياوي[1] قلم مضيء في سماء الجزائر أهدت للأطفال أكثر من خمسين عنوانا قصصيّا مشوّقا، تكتب دون ضجيج وتصنع سعادة الأطفال من وراء ستار، متجنّبة التهاويل الإعلاميّة، والصّخب الاستعراضي، ذات قدم راسخة في الكتابة للطفل بشهادة إبداعها القيّم والغزير وبشهادة كثير من الجوائز الوطنيّة والعربيّة ، التي فازت بها عن جدارة واقتدار، نذكر من بينها:

- جائزة الكويت في مسابقة القصة للأطفال، في مجال الوقف والعمل الخيري والتطوعي: الطبعة الأولى 2013
- جائزة الكويت في مسابقة القصة للأطفال، في مجال الوقف والعمل الخيري، الطبعة الثالثة 2017.
- فائزة بجائزة وطنية في كتابة قصص الأطفال: الطبعة الأولى 2013

من بين نتاجاتها القصصيّة التي أغنت بها مكتبة أدب الطّفل:

- سلسلة مغامرات رامي: (10 قصص منها: رامي والعصفور، رامي في البحر، رامي في الغابة، رامي والأخت المدلّلة، رامي والهدية، رامي والمزحة الثقيلة..)

---

[1] – الأستاذة جميلة يحياوي من مواليد 31 أكتوبر 1961 بمدينة الشراقة بالجزائر العاصمة، ليسانس أدب عربي من جامعة الجزائر العاصمة عام 1984 م، أستاذة في الأدب العربي بالتعليم الثانوي، تكتب القصّة منذ شبابها الأوّل، لكنّها بدأت النّشر منذ 2008 م.

- روايتان موجهتان لليافعين، الأولى بعنوان (فارس والقوّة الخفيّة) والثانية (أشجار الأحلام).
- من قصصها أيضا: (أريد قوس قزح/ الصّبار الطيّب/ المهرج فوفو/ زيتونات جدّتي زهرة/ وسيم يبحث عن جدّة).

ولها غيرها من القصص التي سنعرض لبعضها في هذه القراءة المفصّلة، ونعمل على بسط موضوعاتها وأفكارها والتعرّف على أسلوبها وطريقتها الفنيّة في مخاطبة النشء وتوجيههم والمساهمة في بناء شخصيّاتهم القويّة والمبدعة.

تبدو تجربة الكاتبة جميلة يحياوي من الوهلة الأولى ثريّة وغنيّة، ومتنوّعة العطاء، خاضت في المجال التربوي التعليمي، كما عالجت مجال الخيال العلمي الذي يستفزّ الأطفال كثيرا، ويكاد يكون الأكثر جذبا لاهتمام النشء ويواكب ثقافة العصر التي طغت عليها البصمة العلميّة والاكتشافات الإلكترونية المدهشة..!

رواية (أشجار الأحلام)

ظهر في الآونة الأخيرة ما يسمّى برواية (اليافعين)، وهي قصص طويلة موجّهة إلى الشباب، أي إلى المرحلة المتأخرة من الطفولة، أو مرحلة المراهقة، وهي مرحلة عبور بين الطفولة والشباب النّاضج، وكتب فيها كثير من كتّاب أدب الطّفل، ومن بينهم الأستاذة جميلة يحياوي التي كتبت إلى الآن روايتين في هذا الميدان، وهذه الرواية (**أشجار الأحلام**) إحداهما، والعنوان في ذاته جذّاب ومغرٍ بالقراءة، ويوحي بأفكار عديدة، تتضح شيئا فشيئا من خلال السّرد القصصي.. صدرت هذه القصّة عن عن: دار سما للنشر والتوزيع بالإمارات العربية المتحدة في مائة وواحد (101) صفحة، عام 2017 م

تقول المؤلّفة في مقدمتها لهذه الرّواية العلميّة أنّها قصّة (تروي طريق الدّكتور جواد _طبيب وعالم في الهندسة الوراثية_ في بحثه عن مصدر جديد للضّوء، ولأشياء أخرى.."

والأطفال، صغارا كانوا أم يافعين يحبّون البطولة ولاسيما بطولة الفرد الخارق أو الشخص البارع المتميّز عن غيره ، وهنا تشير المؤلّفة منذ البداية إلى بطل هذه الرواية هو الدّكتور جواد، وهو عالم في الهندسة الوراثية، وهذا العلم هو من العلوم العصريّة التي استطاعت أن تنقل الإنسان من عصر إلى عصر، وغيّرت حياته تغييرا جذريّا، بإيجابياتها وسلبياتها.

وتقسّم الكاتبة روايتها إلى اثني عشر مقطعا روائيّا، لكلّ مقطع عنوان خاص به، نذكر من بينها:

- ليلة رأس السنة
- الأستاذ الجديد
- عالم ساحر
- العودة

القصّة تتحدّث عن طفل صغير اسمه (جواد) يعيش في مدينته الصّغيرة، التي عرفت بكثرة انقطاع الكهرباء فيها باستمرار حتّى سمّيت (مدينة الظلام)، وكانت مدينة فقيرة لم يتمكن المسؤولون فيها من توفير الكهرباء لها بشكل دائم.

وفي المدرسة (الإكمالية) يأتي أستاذ جديد ليدرّس مادة العلوم لجواد وزملائه ، ويكتشفون لأوّل مرّة مصطلح (**التوهّج البيولوجي**) وعندما يتساءل جواد عن معنى هذا المصطلح يلفت انتباه الأستاذ بذكائه ونباهته، ويأخذهم الأستاذ في رحلة استكشاف ليلية للتعرّف على الحشرات التي يصدر منها الضوء، ويترك ذلك أثرا في نفس جواد، فيحلم بأن يكتشف مصدرا للضوء يجعل من مدينته مدينة مضيئة بشكل مستمر، ويقضي على أزمة انقطاع التيار الكهربائي، وينتقل إلى المرحلة الثانوية بتفوّق، ثمّ إلى الجامعة وبعدها يُبتعث إلى أوربا لاستكمال دراسته، ثم يرجع إلى مدينته الصّغيرة ليؤسس فيها مخبر أبحاث علميّة.

وفي ذلك المعمل يكتشف المادة التي تجعل من الحشرات تشعّ ليلا، ويتمكن من زراعة جينات مصنوعة من أنزيمات تلك المادة في حيوانات ونباتات أخرى، ويتحقق الحلم فتصبح مدينته مضيئة بشكل دائم، ويجعل من النباتات كائنات مضيئة في الشوارع وفي البيوت وفي كلّ مكان، ويلتقي بأستاذه باسل مرّة أخرى ويعرف له جميله عليه فيكرمه ويستضيفه في بيته، ويحدّثه عن اكتشافه الرّائع الذي كان له الفضل فيه.

قصّة محكمة النّسج متشابكة الأحداث بشكل هندسي متقن، كأنّك تشهدها وتراها تحدث أمام عينيك، تقدّم للشباب اليافعين مغامرة علمية ممتعة، فيها المعلومات والمعارف المفيدة وفيها القيم الخلقيّة النبيلة، جمعت بين الفنّ والإبداع والعلم والأخلاق والتسلية والمتعة..!

معارف زاخرة: في هذه القصّة (الرّواية) نجد كمًّا هائلا من المعارف والمعلومات العلميّة المفيدة النافعة، يحصّلها القارئ بشكل غير مباشر وهو يقتفي أثر الأحداث، ويتتبّع أفكار ومعاني النّص، ومن تلك المعلومات والمعارف نرصد ما يلي:

- مصطلحات جديدة أو غير مألوفة (الهندسة الوراثية / الحبوب البكتيريّة / التلألؤ البيولوجي / محلول بكتيري / الفرق بين الضياء والنور، ينبعث النور من القمر (انعكاس) وينبعث الضياء من الشمس(توهج)..).
- مصادر الضوء الطبيعية (المباشرة وغير المباشرة) وكذلك المصادر الصناعية التي يخترعها الإنسان.
- اكتشاف الحشرات المضيئة (الخنافس) الطائرة، أو كما كان العرب قديما يسمونها الحباحب.
- فكرة استغلال التفاعل الكيميائي الطبيعي في الإضاءة.
- تزويد السيّارات بحبوب الإضاءة.
- جعل النباتات مصدرا للإضاءة والتدفئة أيضا.
- مَعرفَة أنّ مُعظم الكائنات المتلألئةِ هي الكائناتُ البَحْرية، وهي موجودة في البحار والمحيطات، في مناطقَ مختلفةٍ من العالم.

فالقصّة تحتوي على حشد هام من المعارف العلمية، وقد تمكنت الكاتبة من تقديمه للقارئ بأسلوب غير مباشر، بحيث يهضمه ويستفيد منه دون مشقّة أو عناء، أو شعور بأنّه يتلقى درسا ثقيلا على النّفس، بل يتفاعل مع تلك المعلومات بحماس ليفهم تطوّرات أحادث القصّة.

أفكار قيّمة:

وفي القصّة أفكار قيّمة متنوّعة تسهم في صناعة شخصيّة الطّفل وبناء ذاته بشكل إيجابي فعّال، ومن تلك الأفكار نمثّل بما يلي:

- التعامل الإيجابي مع الآخرين يكون حلّا ناجعا لكثير من المشاكل (تعامل الأستاذ الجديد مع الطالب المشاغب، بالثناء عليه عندما أجاب إجابة صحيحة، ما جعله يتغيّر جذريّا ، ويصبح مجتهدا)، كذلك النظرة الإيجابية للمدينة من طرف الأستاذ (باسل) حيث أجاب على كلام جواد بأنّ مدينتهم تسمّى مدينة الظلام، بأن قال أنّها المدينة الخضراء أيضا، لكثرة أشجارها وجمال طبيعتها.

- حلّ عقدة الخوف من الظلام عند جواد بمواجهة الظلام واكتشاف أسراره.
- مواجهة سخرية الأصدقاء بالاجتهاد في الدّراسة والتفوّق فيها.

معلومات عن تزاوج الحيوانات بطريقة مهذّبة، وتعتمد على أسلوب التلميح والإشارة، تقول المؤلّفة "إنّ هذه الخنافسَ، تَستعمل هذا الوميض المتقطّع كإشارةٍ للبحث عن الزّوج.

أخذ التّلاميذ يضحكون..

قال الأستاذ هسْ..، ثم واصل قائلا:

- وقد تُطْلِقُ الأنثى هذه الإشارات لجَلْبِ الذّكَرِ، ثم الانْقِضاضِ عليه وأكْلِه".
- تصحيح نظرة خاطئة إلى المرأة، وذلك في ردّ الأستاذ باسل على كريم الذي كان لا يحبّ البنات فقال:

"لا تَقُلْ ذلك أبدا، فالأنثى هي اللّبِنَة الأساسية لبناء الأسرة، والرّكيزةُ الّتي يبنى عليها المجتمع، الأنثى هي أمُّك.. جدّتُك..خالتُك.. عمّتُك..وإن شاء الله ابنتُك في المستقبل"

قيم خلقية ودينية:

- حبّ الوطن ويتجلّى ذلك من بداية الرواية عندما تقول المؤلّفة على لسان أمّ جواد:

"وطنُك، يجب أن تحبَّه، وقبل أن تنتظرَ منه أن يعطيك، باشِرْ أنت الأول بخدمتِه والإخلاصِ له"

وفي موقف آخر من الرواية تقول المؤلّفة عندما تتحدّث عن عودة باسل إلى أرض الوطن: "لقد كان في قِمّة السّعادة ورِجْلاه تَطَآن أرضَ الوطن.. الوطن الّذي ترك من أجله مُغْريات الحياة في أوربا، المال والبيت الكبير، والسّيارات الفارهة.. الوطن الّذي فيه وُلِدَ، وتَرَعْرَعَ، وتعلّمَ.. كما رجعَ إلى أمّه الّتي بقيتْ وحيدةً بعد وفاةِ والدِه.."

- يقولون عن مشجّعي كرة القدم الذين انصرفوا من المقهى بعد انقطاع الكهرباء، وقد تذمّر بعضهم، وبعضهم قال عنه: "غادر بعضهم المقهى مُسْتَغْفِرين ومُحَوْقِلين.." وفي موقف آخر قالت: "دُهِشَتْ المرأةُ الطّيبة، وهي ترى نبتةَ الرّيحان تُشِعُّ نورا أخضر مصفرّا،

يخطِف العقلَ لجماله، وتحولّتْ ورقاتُها إلى ما يُشبه مصابيحَ صغيرة، فقامتْ تُسمّي وتُحَوْقِلُ "

- ربط المعلومات العلميّة والظواهر الكونيّة بالقرآن الكريم:

تقول المؤلّفة على لسان الأستاذ باسل " ألَمْ تسمعوا بقولِه تعالى في سورة يونس عليه السّلام، : (هُو الّذي جَعَلَ الشَّمسَ ضِياءً والقَمَرَ نوراً) فالضّوء هو ما يَصْدُرُ مِن الشّيء نفسِه، والنوّر هو ما يُكتسب من الغير، والضّوء أقوى من النّور ".

- التأكيد على أهميّة الوفاء وقيمته في كسب ثقة الآخرين ، تقول المؤلّفة :

" وحين رأى الأستاذ الخَيْبَةَ على محُيَّا التّلاميذ الّذين لم يحْظوا بهذه الرّحلة، وعَدَهُم أن ينالوا نصيبَهم ـهم أيضا ـ في الأيّام المقبلة، فانقلب حزنُهم إلى فرح، لأنّهم يعرفون أنّ أستاذهم إذا وَعَدَ، وَفى.."

- تتحدّث المؤلّفة عن الصلاة بإجلال وتعظيم، وتقول عن أم جواد التي كانت في المستشفى:

"ثم قامت للصّلاة واقفةً، و هي التي كانت في الأيّام السّابقة، لا تقوى على الوقوف فتُصلّي جالسةً في سريرها ".

وهنا لابدّ من وقفة ضروريّة، كثير من الكتّاب والأدباء يؤلفون مئات الصّفحات وبعضهم يكتب رواية من أربعمائة صفحة أو أكثر؛ ولا يذكر فيها اسم الله ولا الصلاة، وكأنّهم ليسوا مسلمين ولا علاقة لهم بالدّين، وكأنّ الدّين فيروس معدٍ يخشى منه.

في جانب الأدب وتوقير الكبار تقول المؤلّفة:" سكَتَتْ المرأتان، وبما أنّ أمّ جواد هي الكبرى، كان لها الكلام هي الأولى".

- اختتام الرّواية بمشهد برّ الابن جواد بأمّه:"وقال: لقد تأخّرتُ على أمّي، لا بدّ أن ألحقَ بها قبل أن تنامَ"

هذا الحشد الكبير والمركز من المعارف والأفكار والقيم، جعل من القصّة (الرواية) تحفة فنيّة لا تقدّر بثمن..!

البناء الفنّي في رواية (أشجار الأحلام):

اعتمدت الكاتبة جميلة يحياوي في بناء روايتها هذه الموجّهة لليافعين؛ على عدّة عناصر فنيّة رائعة ومحبّبة لدى (الشباب)، يمكن أن نذكر منها:

العنوان الجذّاب:

يمثّل العنوان نصف الكتاب أو المعادل الموضوعي للكتاب كما يقال، لأنّه مدخله ومفتاح الولوج إليه، ومحلّ الإغراء الأوّل وترغيب القارئ في الإقبال على الرواية، فإذا نجح فيه الكاتب تحقق له النّجاح بنسبة 50 في المائة، وكان العنوان هنا غريبا، ومتعدّد الدلالات، بحيث يسرح خيال الطفل في فهم المقصود من العنوان إلى اتجاهات عديدة، هي: الأشجار التي تحقق الأحلام، أو الأشجار التي تكتب على جذوعها الأحلام، أو تطلب عندها الأحلام، أو أنّ الأحلام نفسها عبارة عن غابة من الأشجار..!

ثمّ يكتشف القارئ شيئا آخر لم يخطر له على بال، إنّها الأشجار التي تحقق حلم الطفل (جواد) في إضاءة مدينته التي كانت تُدعى (مدينة الظلام). سحر العنوان من التوفيق الذي لا يوفّق إليه إلا الموهوبون البارعون من الكتّاب.

البطل الفذّ (المختلف):

معظم الروايات والقصص الناجحة تعتمد على شخصيّة البطل الفذّ أو البطل الخارق المختلف عن الآخرين، والذي يتعلّق به القارئ ويجد نفسه فيه، أو يشعر أنّه يحقق أحلامه من خلاله، وكان اختيار المؤلّفة هنا لطفل صغير اسمه (جواد)، ذي صفات مميّزة وطبيعة مغايرة لبقيّة زملائه؛ اختيارا موفقا، إذ أنّه طفل يتطلّع إلى تحقيق حلم عظيم، وهذا الحلم ليس مجرّد حلم ذاتي يُشبع رغبة فرديّة، بل هو حلم يحقق مصلحة كبيرة وفائدة عظيمة للمجتمع بأكمله.

وهذا البطل أيضا ينتقل من مرحلة الطفولة بكلّ ما تميز فيها من شجاعة وجرأة وحبّ للعلم والمعرفة، إلى مرحلة الرجولة المثالية، مع صفة ضعف كانت عنده في صغره هي عقدة (الخوف من الظلام)، إشارة من الكاتبة إلى أنّ البطل الكامل لا

يوجد في الواقع، بل البطل النموذج، والبطل المبهر هو الذي يجعل من ضعفه نقطة تحدٍّ إلى تحقيق آماله وطموحاته.

الرّمزيّة في التسميات:

إنّ كلّ مسمّى خاص سواء كان لأحد أبطال الرّواية أو مصطلح من المصطلحات، أو مكان من الأمكنة، يُلفت انتباه القارئ (اليافع) عندما يسمعه أوّل مرّة ويترك أثره الإيجابي في نفسه، سواء كان أثرا إيجابيّا أو سلبيّا، ولذلك الكاتب النّاجح هو من يمرر رسالته إلى القارئ من خلال هذه المسمّيات بحيث تحفر بصمتها في نفسه بعمق.

وفي رواية (أحلام الأشجار)، نجد عدّة مسمّيات اختارت لها الكاتبة أسماء محدّدة بعناية، بدءا بأبطال الرواية مثل (جواد) هو اسم يدلّ على السَّبق والتفوّق أو السّخاء والعطاء، إلى اسم أستاذه (باسل اللّيث) ، وفيه إشارة واضحة إلى العزيمة والقوّة، إذ أنّه مشتق من (البسالة) وينسب إلى (اللّيث) أي الأسد، وحتى لو لم يُدرك الفتى (القارئ) المقصود من دلالة الاسم مباشرة إلا أنّه يترك أثره في نفسه بشكل غير مباشر (عن طريق الإيحاء).

وفي تسمية الوادي الذي قصده الطلبة مع أستاذهم بـ (وادي السُّرُج)، معنى الإضاءة التي تتوفّر في أشجار هذا الوادي الناتجة عن (الخنافس المضيئة أو الحباحب)، ومعروف أنّ لفظة السرج هي جمع سراج، ونجد تلك الرمزية تتوفّر أيضا في تسمية المستشفى (مستشفى البُرْءِ)، وفيه تفاؤل بالبرء والشّفاء، الأمر ذاته نقوله بالنّسبة لفندق (النور) ، الذي يرمز إلى القضيّة الجوهريّة في الرّواية وهي قضية توفير الإضاءة والنّور للمدينة.

التصوير الفنّي البارع:

براعة السّرد تكمن أيضا في قدرة الكاتب على تصوير المشاهد تصويرا بارعا، حتّى تصير كأنّ القارئ يراها ويسمع أصوات شخوصها ويكاد ينغمس في بوتقة

أحـداثها، وفي روايـة (أشـجار الأحـلام) مشـاهد وصـور رائعـة تسـتحق أن نقـف عنـدها لحظات ونتملّى براعة التصوير فيها:

تقـول الكاتبـة في مشـهد مثير في بدايـة الرّوايـة، وكـان يعبّر عـن نهايـة أحـداثها في الوقـت نفسه:

"وكمـا لـو أنّ يـداً سِـحريةً تـدخلتْ، بـدأتْ أشـجارُ الشّـارعِ تـتلألأ شـيئا فشـيئا، حـتّى بلغـت قمّـة وَهَجهـا، فتحوّلـتْ ظُلمـةُ اللّيـل إلى نـور يخطـف الأبْصـارَ بجمالـه، وتحوّلـتْ نبـاتاتُ الزيّنــة الموجــودة علــى حــوافِ النوّافــذِ والشُــرُفاتِ إلى مصــابيحَ ذاتِ أضــواءٍ مختلفةِ الألوانِ، فمِنها الأخضرُ ومنها الأصفرُ ومنها البرتقالي"

مشــهد مفصّــل يــدلّ علــى نتــائج أبحــاث الــدّكتور جــواد في مجــال الإشــعاع الضــوئي، بحيـث صـارت الأشـجار والنّبـاتات تضـيء اللّيـل الـدّامس الـذي كـان يجلبـب المدينـة، واسـتعملت الكاتبـة عـدّة تعـابير قويّـة لترسـم لنـا لوحتهـا الفنيّـة هـذه، فاختـارت مثـل هـذه الكلمـات والعبـارات (يـد سـحريّة، تـتلألأ، قمّـة وهجهـا، أضـواء، نـور يخطـف الأبصار..)

وهناك مشهد آخر فيه فكاهة وطرافة، تقول فيه الكاتبة:

"وبعـد أن أنهـى جـواد واجبَـه، استلقى علـى الفِـراش، وأخـذ ينظـرُ إلى جسـمه، الّـذي كــان يبــدو ضــخماً علــى الجــدار، وكأنّــه جســمُ عِمــلاقٍ ذي شــعرٍ مُجَعَّــدٍ، وأنــفٍ طويلٍ.."

مشــهد فكــاهي لا أظــنّ أنّ أحــدا فاتــه في صــغره، عنــدما تكــون الإضــاءة خلــف الأجسـام خافتـة فتـنعكس ظـلال تلـك الأجسـام علـى الجـدار المقابـل، ويُـدهش ذلـك الأطفـال ويسـحر أبصـارهم، وتخطـر بأذهـانهم خيـالات شـتى وصـور لحيـوانات مدهشـة أو مرعبة، وتكون أحيانا فسحة للّعب واللّهو برسم أشكال مختلفة بالأيدي..!

ولذلك استكملت المؤلّفة هذه الصورة بمشهد آخر تقول فيه:

"انطلقَ في انجازاته الفنية الّتي يعكسها نور الشّمعة على أحد جدران غرفته الصغيرة، فقام يشكّل بيديه وأصابعه، رؤوسا لحيوانات كالحصان والكلب والتمساح وحتى الدّيناصورات"

هذا المشهد يحرّك الكامن في لاشعور اليافعين ويذكرهم بأحداث طفولتهم الأولى، ويجدون فيها شيئا مشتركا بينهم وبين بطل الرّواية.

الحوار:

نوّعت الكاتبة في أسلوبها الرّوائي بين السّرد والوصف والتصوير الفنّي والحوار الذي يغطّي مساحة كبيرة من حجم الرّواية، وكان الحوار بين الأمّ وابنها، وبين جواد وأستاذه وزملائه، وبين جواد ونفسه في بعض الأحيان، ومن أمثلة الحوار بين الأم وابنها جواد؛ حديثهما عن الوطن وأهميته ، حيث يقول لها جواد:

"أمّي.. لماذا نحن نعيش في هذه المدينة المظلمة ؟

ــ قالت إنّه قدرُنا يا بنُيّ.

قال:

ــ لماذا لا نرحلُ من هنا ؟

قالت:

ــ إنّها وطنُنا، والإنسانُ لا يختارُ وطنَه، مثلما لا يختارُ أباه وأمّه وشكلَه ولونَه.

ثم قامتْ تسألُه:

ــ هل تحبُّني ؟ وهل تحبُّ أباك ؟

قال:

ــ أنتما أغلى ما لَدَيّ في هذا الوجود..

ابتسمتْ، وقالت:

مع أنّك لم تخترْنا.. هكذا وطنُك، يجب أن تحبَّه، وقبل أن تنتظرَ منه أن يعطيك، باشِرْ أنت الأول بخدمتِه والإخلاصِ له.

وهـذا الحـوار مثـير فعـلا، فعنـدما تواجـه صـعوباتُ الحيـاةِ ومشـقاتُها؛ الشـبابَ في مقتبـل العمـر؛ يفكـرون في الهجـرة وتـرك الـوطن بحثا عـن فضـاء آخـر يأملـون أن يكـون أفضـل، ولـيس مـن السّـهل إقنـاعهم بالبقـاء إلا إذا كانـت الحجـج قويّـة والبراهـينُ سـاطعة، وكذلك فعلت أمّ جواد في هذا الحوار.

وفي حـوار آخـر بـين الأسـتاذ (باسـل اللّيـث) وطلبتـه يتجلّـى الإقنـاع العملـي للطلبـة باقـتراح رحلـة ميدانيـة يشـاهدون فيهـا مـا تحـدّث عنـه الأسـتاذ حـول (التلَّأْلُـؤُ البِيولوجي):

"فتعالتْ أصواتُ بعضهم:

ــ التَّلَأْلُؤ البِيولوجي؟

واستفسَرَ بعضُهم قائلا:

ــ ما هذا ؟ يا أستاذ ؟

فقـال الأسـتاذ بهـدوءٍ: لا تتعجّلـوا الأمْـرَ، سـتَفْهَمون هـذا الموضـوعَ في وقتـه.. وسـأختارُ مـنكم مجموعـةً ممّـن سـيعملون بجِـدٍّ، لمـرافقتي في رِحلـة تشـاهدون فيهـا الظّـاهرة في الطبّيعة".

هـذا الحـوار العلمـي الحاسـم يتناسـب بشـكل كبـير مـع روايـة موضـوعها الخيـال العلمـي ، وتعـالج قضـيّة علميّـة جوهريّـة في حيـاة المجتمـع، لاسـيما في المجتمعـات الـتي تصـنّف ضمن دول العالم الثالث..!

وإلى جانـب ذلـك (الحـوار) بالنّسـبة للأطفـال واليـافعين يجعلهـم يعايشـون أحـداث القصّـة كـأنّهم جـزء مـن شخوصـها، ونجحـت الكاتبـة في تحقيـق ذلـك بشـكل كبـير وطريقة مقنعة.

الحبكة:

عملـت الكاتبـة علـى عنصـر الحبكـة بشـكل كبـير، بحيـث بـدأت الحبكـة بحـدث بسـبط، وهو قول الكاتبة عن بداية الإشارة إلى الانقطاعات الكهربائيّة:

"وما كان يخشاه جواد حين يأتي الليّل، وتكتسي المدينة حلّة سوداء، وقع ككلّ مرّة، وفي اللّحظات الحاسمة..

ففي الوقت الّذي أوشك أن يأتيه فيه الفرجُ، ويتمكّن من إيجاد الحلّ للمسألة الرّياضية الصّعبة، انقطع التيّارُ الكهربائي، وانطفأ ضوءُ المصباح الوحيد الّذي كان يتوسطُ سقفَ الغرفة الصّغيرة"

ثم تطوّرت شيئا فشيئا إذ ازدادت الحبكة تعقيدا عندما تحدّثت الكاتبة عن السرقات التي تحدث ليلا بسبب انقطاع الكهرباء، وأنّ ذلك الحدث لم يعد مستغربا بسبب حدوثه المتكرر..!

وفي مرحلة أخرى أكثر تعقيدا تصف الكاتبة ما يحدث للجمهور المتابع لمقابلة في كرة القدم بأحد المقاهي؛ بسبب انقطاع الكهرباء:

"وما إن أطلق الحكمُ صافرة انطلاقِ المباراة، حتّى انطفأت الأضواءُ فجأة، وتحوّلتْ شاشةُ التلفزيون إلى قطعةٍ سوداءَ خَرْساءَ بَكْماءَ ، فعَمَّتِ المكانَ فوضى عارِمةٌ، اختلطتْ فيها الأصواتُ وتدافعتِ الأجسامُ، وترافستْ الأقدامُ، فخرج بعض الناس ساخطين مستنجدين بضوء القمر"

وتبلغ الحبكة ذروتها عندما يمرض يوسف صديق جواد بالزائدة الدوديّة ولم يتمكن الأطباء من اكتشاف ذلك في الوقت المناسب بسبب انقطاع الكهرباء وعدم إجراء صورة أشعّة للمريض:

"لقد أحسّ بألمٍ في اللّيل، وبحُمى فأخذه أبي إلى المستوصف القريبِ من بيتِنا، وبما أنّ الكهرباء كانت مقطوعةً، لم تُجْرَ له أشِعة واكتفى الطّبيب بإعطائه مُسكِّنات ونصح بإعادتِه إلى البيت..

ولما اشتدّ عليه الألم، جئنا به إلى المستشفى.. وبعد الفحوصات قيل لنا أنّ الزائدة الدّودية انفجرتْ، وأنّ حالتَه حرِجةٌ، فأُجْرِيتْ له عمليةٌ جراحيةٌ، وهو الآن في العِناية المركَّزة".

والحبكة تعتبر عنصر تشويق وحافزا على مواصلة القراءة والتطلّع إلى معرفة نتائج الأحداث، وكيف سيتم حلّ عقدة الرّواية..!

وتحلّ العقدة فعلا بتمكن جواد من نقل الجينات المسؤولة عن الإشعاع الضوئي عند حشرات (الحباحب) إلى النّباتات، وظهر ذلك في باقة أزهار الريحان التي أهداها جواد لأمّه المريضة في المستشفى.

أسلوب مشوّق وجذّاب ولغة سلسة وجميلة، تغري وتغني القارئ (المتلقّي) بثروة من المعارف والمعلومات المفيدة والقيّمة، مع توفّر عنصر المغامرة والتّحدّي الذي هو من خصائص اليافعين الكبرى.

قراءة في رواية (فارس والقوّة الخفيّة)

(نعم، أنا مختلف، ولكنّي لست متخلّفا..) ـــــ فارس بطل الرواية

بدأ الكتّاب والمبدعون في السّنوات الأخيرة يهتمّون بفئة ذوي الاحتياجات الخاصّة، ويدمجون في كتاباتهم نماذج من أبطال قصصهم أو إبداعاتهم تتصف بأنّها من هذه الفئة، وذلك لإيصال فكرة إلى القارئ أنّ (المعاق) حركيّا أو بصريّا أو أية إعاقة كانت، ما هو إلا فرد من بقية أفراد المجتمع، ويمكنه أن يتميّز فيه ويتفوّق..!

ولذلك اختارت الأديبة جميلة يحياوي لروايتها الموجّهة لليافعين بطلا يعاني من إعاقة حركيّة، وسمّت هذا البطل (فارس). وفي التسمية مفارقة بديعة تدلّ على التحدّي ومواجهة الصّعاب بشجاعة الفرسان ، وكانت مشكلة فارس أنّه تأخّر في الالتحاق بالمرحلة المتوسّطة من التعليم بسبب تلك الإعاقة ، لكنّه في نهاية المطاف قُبل، والتحق بالمتوسّطة ولكن وجد معاناة أخرى وعقبة أصعب وأشدّ، إنّها المعاملة السيئة التي قابله بها زملاء الفصل وعلى رأسهم (وليد وأمين) الفتيان المشاغبان، ولكنّ فارسا صبر وتحمّل كلّ الأذى ناله منهما بثبات، بل قابل السوء بالمعاملة الحسنة، ووجد الدّعم الكبير من أستاذ التربية البدنيّة، الذي اكتشف موهبته في التحكيم لرياضة كرة اليد..!

وعندما أصيب أحد زملائه (كمال) في حصّة التربية البدنيّة بالتواء خطير في الكاحل؛ كان هو المنقذ، بسبب معلوماته الدّقيقة التي تعلّمها في الإسعافات الأوّلية، وشهد بالحق مع خصمه وليد الذي اتهمه أستاذ الرياضة بأنّه هو سبب سقوط كمال، وقال فارس:

- لقد سقط لوحده بعد أن زلقتْ رجلُه..

ونجا وليد من تهمة لم يفعلها، رغم أنّه كان السببَ في إلحاق كثير من الأذى بفارس.

وبـذلك سـاهم في التـأثير علـى ذلـك الزميـل (وليـد) وصـار صـديقا لـه، وكـان بينهمـا هذا الحوار الرّائع:

"حين انتهت المقابلة، أقبل وليد، مدّ يده لفارس مصافحا وقال:

ــ شكرا لأنّك وقفت معي..

قال فارس:

ــ أنا لم أقف معك، بل وقفت مع العدل.

نظر وليد إليه نظرة إعجاب، وقال:

ــ لم أتخيلك يوما بهذه القوة..

ثم وبثقته المعهودة بنفسه، قال وليد:

ــ من اليوم أنت صديقي فأنا أحب الأصدقاء الأقوياء"

وكـان لفـارس مـا أراد عنـدما شـارك في سـباق وطـني للهـواة علـى الكراسـي المتحرّكـة، بالعاصـمة ونال المرتبـة الأولى وفـرح بـه أبـواه وكـلّ أفـراد مدرسـته وعلـى رأسـهم المـدير، وأسـتاذ التربيـة البدنيـة. والعجيـب أنّـه أثنـاء التـدريب كـان إلى جانـب الأسـتاذ أحمـد زميلُـه (وليـد) وكـذلك كمـال الـذي شـهد عليـه أنّـه سـقط في الملعـب مـن تلقـاء نفسـه ، فحقـد عليـه في البدايـة، ولكنّـه لمـا سـقط مـرّة أخـرى بسـبب اسـتعماله للعنـف كـان هـو الـذي قـدّم لـه الإسـعافات الأوّليّـة ممـا تعلمـه عـبر شـبكة الأنترنـت، الأمـر الـذي أثـر في كمال كثيرا وكان سببا في تعلّمه لعملية الإسعافات الأوّلية وإتقانها.

مغزى وقيم:

في هـذه القصّـة كثـير مـن القـيم والأهـداف التربويّـة العظيمـة، أرادت الكاتبـة أن توصـلها لليـافعين الـذين دخلـوا مرحلـة المراهقـة، فجعلـتهم يقـرأون أحـداثا يعيشـونها يوميّـا، مجالهـا المدرسة المتوسّطة، ومن تلك القيم نذكر:

- التحـدّي وعـدم الاستسـلام للصّـعاب والعقبـات، ففـارس فـتى معـاق حركيّـا لـو استسـلم لأعاقتـه، ونظـرات الاحتقـار مـن زملائـه في المتوسّـط لبقـي حبـيس البيـت، ولما حقّق شيئا في الحياة، لكنّه تأثر بكلام أبيه عندما قال له:

"لقد رأوا ضُعْفَكَ الخارجي، عِدْني أن تُرِيَهُمْ قوّتَكَ الدّاخلية".

تلك هي الجملة السّحريّة التي أحدثت انقلابا في نفس فارس، وجعلته يتحدّى كلّ ظروفه الصّعبة ، ويحقق الفوز والنّجاح..!

- القيمة الثانية تتمثل في التسامح ومقابلة السيّئة بالحسنة، وحدث ذلك مع فارس حين شهد لصالح وليد، رغم أنّه كان عدوَّه ويعامله معاملة قاسية وهو الذي دبّر له مكيدة إلصاق كرسيّه المتحرّك بالغراء في بلاط الصّف. وكانت هذه المعاملة السببَ في تحوّل وليد إلى فرد إيجابي في المدرسة.

كذلك معاملة فارس الإيجابيّة لكمال الذي شهد ضدّه (بالحقّ)، فتوعّده كمال بالانتقام، لكنّه هو من أسعفه بالطريقة الطبيّة الصحيحة فيما بعد ، لما سقط سقطته المهلكة وكان السببَ في نجاته بشهادة الطبيب ، وأصبح كمال أيضا فردا إيجابيّا ونافعا في المجتمع المدرسيّ عندما ساعد مدرّب فارس في تحضيره وإعداده للمسابقة.

- أيضا معاملة الآنسة (سارة) المشرفة؛ لأمين بطريقة جيّدة لما رأت خطّه في لوحة جميلة، فأخذته إلى المدير وأبدت له إعجابها بخطّ أمين البارع، وشجعته على تفوّقه في فنّ الخطّ. كما ساهم والده في التأثير عليه ليتغيّر إلى الأفضل.

- كما أنّ في الرواية تنويه من بدايتها إلى أهميّة القراءة والمطالعة، حيث قالت الكاتبة عن فارس:

"جلس "فارس" مقابلا لأمه على الطاولة، وكالعادة، كلما قرأ قصة جديدة، يُعيد قَصَّها على أمّه بكلّ تفاصيلها، وهي تصغي إليه باستمتاع كبير، فأخذ يحكي لها بحماس، قصّة (الفرسان الثلاثة) التي أنهى قراءتها في اللّيلة الماضية "

وهذا هدف مهم جدّا في الكتابة الموجّهة للأطفال، وخصوصا اليافعين منهم؛ أن نجعلهم يحبّون المطالعة ويقبلون على قراءة الكتب بشغف ونهم كبير، لأنّها الطريقة المثلى التي تسهم في بناء شخصيّة الطّفل بشكل سويّ، وتزوّده بالمعارف الصّحيحة والمعلومات القيّمة.

- وفي رواية (فارس والقّوة الخفيّة) نجد أيضا قيمة مهمّة للغاية وهي قيمة دعم الأبوين لأبنائهم، ومساعدتهم من أجل تخطّي كلّ العقبات، ودعم المدرّسين كذلك، وأنّه دعم لا يقلّ أهميّة عن جهد الأبوين في تمكين الأطفال واليافعين من تحقيق أهدافهم والوصول إلى أحلامهم الكبرى.
- أن يكتشف الطفل (الفتى) أنّ القوّة الحقيقية والعظيمة؛ هي القوّة التي تنبع من داخله وما عليه سوى أن يفجّرها ويستخرجها من مكامنها في ذاته.

البناء الفنّي في الرّواية:

كما وجدنا في القصص السابقة أنّ الكاتبة تعتمد في عمليّة البناء الفنّي على التنويع في الأساليب، وهي مربيّة وأمّ بالدّرجة الأولى، وتعرف أنّ الأطفال سريعو الملل، كثيرو التبرّم بالأشياء المعتادة، ويحبّون التغيير باستمرار، حتّى أنّهم لا يكادون يستقرّون على حال، وإلى جانب الحوار والحبكة واختيار الألفاظ المشوّقة، واستخدام الأسلوب الاستفساري لمناقشة كثير من الأفكار ، ركزت المؤلّفة في هذه الرّواية على تقنية الوصف بشكل كبير جدّا، بحيث أخذ حيّزا معتبرا من النّص.

روعة الوصف وجمالية التصوير:

الوصف والتصوير وجهان لعملة واحدة، لكنّ التصوير يزيد على الوصف درجة، ولنقل أنّ الوصف إذا ارتقى به الكاتب فنمّقه وجمّله صار تصويرا بارعا، ومن المحطّات التي برعت فيها الكاتبة في الوصف، رسمها للأشخاص بشكل دقيق للغاية، حتّى يكاد يَمْثُلُ الشخص أمامنا حين نقرأ وصفها له، تقول عن طفلة صغيرة تحاول الامتناع عن الذّهاب إلى المدرسة، وأمّها تشدّها بقوّة:

"وبينما كان يشاهد وهو يبتسم، طفلةً مدلّلة تحمل في يدها اليمنى محفظة صغيرة على شكل حيوان من الفَرْو، تبكي وهي تحاوِل بشدّة أن تثبّت قدميها على الأرض، وأن تخلّص يدها اليسرى من يد أمها، التي اضطرّت في الأخير أن تستعمل كلّ ما تملك من قوّة، لتسحبها سحبا نحو الأمام"

مشهد عرفه كلّ منا وربّما عشناه في طفولتنا أو رأينا من عاشه وضحكنا من تصرّفه هذا، كما ضحك فارس في ختام المشهد هو أيضا، كما أنّ في المشهد إيحاء خفيّ للمقارنة بين هذه الطفلة السّليمة الجسم، وهي مع ذلك تمتنع عن الذّهاب إلى المدرسة، وبين فارس (القعيد) الذي يتوق إلى الذّهاب إليها.

مشهد آخر لا يقلّ عنه روعة وتصويرا حين تقول الكاتبة:

"وجدا رجلا طويل القامة، ضخم البنية، أصلع الرأس، مفتول الشوارب، يلبس نظارة لا تكاد تُرى عيناه الصغيرتان خلف زجاجها الغليظ، كان يرتدي بدلة أنيقة ويلف حول رقبته ربطة عنق حريرية جميلة، ففهم فارس أنّه دون شك موظّف مهم في المدرسة"

في المشهد تصف الكاتبة مدير المدرسة ولكن بعيني فارس، الذي استنتج من تلك الأوصاف والملامح التي تلوح من منظره المهيب؛ أنّه مسؤول كبير في المدرسة ، وعرف أنّه المديرُ نفسُه عندما أخبره أبوه بذلك.

وهذا الوصف مهم جدّا في هذا الموقع بالذّات من الرواية ، لأنّه مشهد التقاء فارس لأوّل مرّة بالمدير الذي سيقضي معه عدّة سنوات ، وقد يطالعه بأوصافه تلك صباح مساء ، وأيضا لأنّ منظر المدير من الأمور الأساسيّة التي تلفت انتباه الطلبة والتلاميذ ، وتبقى راسخة في أذهانهم (سلبا أو إيجابا) لسنوات طويلة.

ويشبه هذا المنظرَ؛ منظرٌ آخر لا يكاد يخلو منه قسم (صفّ) في أي مدرسة، وهو منظر التلميذ المشاغب عندما يرغم على فعل شيء يأباه ، تقول المؤلّفة عن وليد لما أمره الأستاذ في حزم أن يترك مكانه في مقدّمة الصّف لفارس:

"ذهب وليد إلى مكانه الجديد، وهو يدكّ الأرض دكا بحذائه الرّياضي الغليظ، وخطواته الغاضبة، وجلس وهو يتمتم بكلمات أضحكت من كانوا قريبين منه".

وكـــان أطـــول وصـــف وأغربـــه هـــو وصـــف أســـتاذ الاجتماعيـــات ، في مشـــهد (كاريكاتوري دراماتيكي) ، إذ قالت عنه :

"جلس فارس ينظر إلى الأستاذ الذي قام وبخط عريض جميل، يسجل تاريخ اليوم على السبورة، ويكتب عنوان الدرس كبيرا "**حضارة سبأ**" ثم استدار نحو تلاميذه ووقف لفترة صامتا، ثم أغمض عينيه وكأنّه يستحضر فكرة مهمة، أو حدثا هاما مدفونا في ذاكرته، وبعدها قام بمصمص شفتيه، يهيئهما للانطلاق في شرح الدرس، ولكن هيهات أن ينطلق، قبل أن يحرك رجليه وكتفيه بطريقة غريبة، وكأنه سيقوم بقفزة طويلة يقطع من خلالها المسطبة من طرف إلى طرف .. وفجأة، فتح عينيه وأخذ يحدّق بفضول حوله، وكأنه استيقظ من غفوة.. وبعد أن ألقى نظرة شاملة على تلاميذه، يبحث عن أمر قد فاته خلال غفوته، أشار إليهم محركا سبابة يده اليمنى، متوعدا أولئك الذين لم ينتبهوا إلى فتحه لعينيه، واستقرت حركته التحذيرية على وليد، الذي قبض عليه متلبسا وهو يقلده بحركات بهلوانية زادت من ضحك زملائه.

وأخيرا حلّت نقطة الانطلاقة، اعتدل الأستاذ وسط المسطبة، مبديا شيئا من النشاط، تحمحم، ثم عدّل ربطة عنقه التي يبدو من احمرار وجهه، وانتفاخ وجنتيه، أنها كانت مشدودة أكثر من اللازم.. عمّ الهدوء أرجاء القسم، وراح الأستاذ يحكي عن حضارة سبأ، وعن ملكتها بلقيس وعن حكمتها.. وحين نسي نفسه وهو يطيل في وصف جمال الملكة بلقيس، بدأ التلاميذ يتهامسون ويضحكون.."

وقد نقلت هذا الوصف التفصيلي – رغم طوله – لما فيه من طرافة وغرابة أوّلا، وأيضا لأنّ كثيرا من القراء الذين مرّوا بالمدرسة بمختلف أطوارها، بلا شك أنّه مرّ بحياتهم أنواع من الأساتذة ممن يتصفون بمثل هذه الصّفات الغريبة، والذين تبقى صورهم في الذّاكرة لا تمحى، كما أنّ القارئ لهذا المشهد يكاد يجزم أنّ الكاتبة نفسَها تصف به شخصّا (أستاذا) محدّدا عرفته أثناء دراستها، أو قريبا منه في تلك الأوصاف.

ويمكن أن نحصي في الرّواية أكثر من عشرة مشاهد وصفيّة أو تصويريّة، تحوّل فيها قلم الكاتب إلى ريشة فنّان، وليس بين هذه وذاك إلا خطّ فاصل، رفيع جدّا..!

وربّما من أطرف المشاهد التي استخدمت فيها الكاتبة الوصف ، لتفاجئ القارئ بأنّ بطل الرواية فتى معاق ، والذي لم تذكر في بدايتها أنّه معاق؛ حين قالت:

"ثم حملت الصغيرة **"لينا"**، وذهبت بها إلى الحمام، لتقوم بنظافتها الصباحية، بينما قام "فارس"بتحريك عجلتي كرسيه، وتوجّه إلى الصالون، ليشاهد حلقة جديدة من مسلسله الكرتوني"

الخلاصة أنّ الكاتبة جميلة يحياوي جعلت من الوصف في هذه الرواية تقنيتها الفنيّة المميّزة لتبليغ أفكارها، وتقديم رسالتها إلى القارئ، وهذه التقنيّة دوما ما يحدّدها موضوع القصّة أو الرّواية، فالأحداث تتمحور حول التحدّي ومواجهة الصّعاب، وإثبات الوجود بطريقة إيجابيّة، ولذلك كان الوصف هو السيّد هنا.

فضلا عن ذلك استخدمت الكاتبة الحوار بشكل كبير، لأنّه مهم للغاية في تطعيم الأحداث بنوع من الحيوية والحركيّة التي يبثّها الحوار في مناحي النّص.

قصص منوّعة:

لكاتبة الأطفال جميلة يحياوي قصص أخرى غَيرَ رِوَايتَي (أشجار الأحلام وفارس والقوّة الخفيّة[1]) موجّهة للأطفال نذكر منها قصص (الصبّار الطيب/ أريد قوس قزح/ المهرج فوفو/ وسيم يبحث عن جدّة / زيتونات جدّتي زهرة). ونعرض لكلّ قصّة من هذه القصص بشيء من التحليل..

1 – قصّة (الصبّار الطّيب):

وهي قصّة تسرح في فضاء الجمال وتتجوّل بالأطفال في عالم الأزهار والورود، بحيث يكون كلّ أبطالها من الأزهار؛ التوليب والبنفسج والأوركيد والقرنفل والنّرجس، والمغامرة كلّها مبنية على ما يحدث داخل (دفيئة) لتربية الأزهار، هذه الأزهار التي

---

[1] – أفردنا رواية (فارس والقوّة الخفيّة) بقراءة مفصّلة.

تتباهى بجمالها وحسنها، وتعجبها ألوانها وأشكالها، وعندما يضمّ إليها البستاني نبتة صبّار (غريبة)، تنظر إليها باحتقار وازدراء..!

ويعاني الصّبار لأيّام طويلة من هذه المعاملة السّيئة التي قابلته بها الأزهار الأخرى، وذلك ما عبّرت عنه الكاتبة بقولها:

"عَاشَ الصّبارُ أيَّامًا طَوِيلَةً صَعْبَةً، وَسَطَ تِلْكَ الأَزْهَارِ المتَعَالِيَةِ الَّتِي لاَ تُحِبّهُ، وَتَمَنَّى لَوْ كَانَتْ لَهُ رِجلاَن، حَتَّى يُغَادِرَ ذَلِكَ المكَانَ".

ولكن حدث أمر مفاجئ غيَّر من مجرى الأحداث، وجعل الأزهار تنظر إلى الصّبار بتقدير وإكبار، إذ أصيب البستاني بكسر في رجله، وغاب عن (الدّفيئة) لعدّة أيّام، عانت فيها الأزهار من العطش الشديد، وبدأت بالشحوب والذبول، وكادت تموت ، لولا تدخل الصّبار الذي يتميّز بقدرته على تخزين المياه ومقاومة الحرارة الشديدة، فسمح لجذورها بامتصاص المياه من جذوره وعرّض نفسه للخطر بفقدان كميّات كبيرة من مخزونه المائي، فشحب لونه هو الآخر، وكاد يموت وعندما جاء البستاني ورآه على تلك الحال قام بسقيه، وظنّ أنّه لم يتأقلم مع جوّ الدفيئة، وصمّم أن يُرجعه إلى موطنه الأصلي (في الصّحراء) إذا لم يتحسن في الصّباح.

وباتت الأزهار في خوف وهلع وهي تتمنى أن لا يُرجَعَ (الصّبّار) إلى موطنه الأصلي، لكنّ الصبّار بات يحلم بأرض الوطن، تقول الكاتبة في ختام القصّة:

"بَيْنَمَا قَضَى الصبّارُ اللَّيْلَةَ يَحْلُمُ بِأَرْضِهِ وَأَهْلِهِ.."

وتركتِ النّهايةَ مفتوحة يتخيّلها الطفل كما يحلو له..!

هذه القصّة تميّزت بأمور مهمّة منها جمالية الأسلوب، الذي توزّع بشكل متوازن بين السّرد والوصف والحوار، كما تفنّنت في اختيار شخصيّات القصّة إذ جعلتها أزهارا متنوّعة، مضافا إليها نبتة الصّبار، التي تعتبر نبتة شاذة بينها.

في القصّة طرافة وإثارة ورسالة خلقيّة تربوية وقيميّة غير مباشرة، وعنصر الجذب والتشويق هنا هو جعل القصّة تدور أحداثها بين أزهار، بمعنى أنّ أبطالها أزهار ناطقة، وكأنّها بشر، تفكر وتحسّ وتتألم وتفرح وتحزن..!

في القصّة عدّة قيم تربوية مهمّة نذكر منها:

- ذمّ التكبّر والتباهي بالنّفس واحتقار الآخرين مهما كانوا ، لأنّهم قد يتميّزون بخاصية هامة لا نملكها نحن، مثلا (تخزين الصّبار للماء)، رغم بشاعة منظره.
- التضحية بالنّفس من أجل الآخرين (تقديم الصبّار لمخزونه المائي للأزهار).
- حبّ الوطن والحنين إليه ، وقد جاء ذلك على لسان الصّبار في قوله:

"قَضَى الصبّارُ اللَّيْلَةَ يَحْلُمُ بِأرْضِهِ وَأَهْلِهِ"

المحتوى العلمي:

وتعتبر القصّة قصّة علميّة بامتياز، إذ تقدّم ذخيرة علميّة مركزة للأطفال يمكن أن نذكر منها:

1 – التعرّف على عدد كبير من أنواع وأسماء الأزهار (النّرجس والتوليب والبنفسج والأوركيد والقرنفل)، فهذه خمس أزهار يتعرّف عليها الطفل ويمكن أن يحفظ أسماءها.

2 - التعرّف على بعض المصطلحات المهمّة مثل كلمة (الدفيئة/ بتلات)، والدفيئة مصطلح غير شائع كثيرا، فهناك من يسميها مشتل أو بيت بلاستيكي أو صوب، لكن كلمة (دفيئة) تبدو مصطلحا جيّدا ومناسبا للغاية.

3 – يتعلّم الطفل بعض الأشياء عن طبيعة الصّبار، مثل قول الكاتبة:

"قَالَ لَهَا الصَّبارُ:

ـــ أنَا أُخَزِّنُ الماءَ الكَثِيرَ فِي جِسْمِي، وَأَسْتَطِيعُ أنْ أصْمُدَ هَكَذَا لِشُهُورٍ.."

القصّة طريفة وجميلة صيغت بأسلوب رائع وتضمّنت توجيهات تربوية وقيمية بطريقة غير مباشرة، بالإضافة إلى احتوائها على معلومات علميّة مفيدة، فضلا عن طابع التشويق الذي غلب عليها.

2 – قصّة (وسيم يبحث عن جدّة):

قصّة أخرى ذات فكرة طريفة ومميزة ، تتحدّث عن قيمة الجَدّة وأهميّتها في حياة الأطفال، فوسيم لم يكن له جدّة، وعندما تذوّق ذات يوم من كعك زميله كريم وأعجبه، أخبره كريم أنّه

من صنع جدّته، وأنّها تحكي حكايات أيضا ، وعندما عاد إلى البيت سأل أمّه عن جدّته، فأخبرته أنّه كان له جدّتان ولكنهما توفيتا، وحاول أن يعتبر جارتهم العجوز جدّة، لكنها رحلت هي أيضا، وفي الحديقة لما اقترب من امرأة كبيرة تنسج كنزة، وأراد اعتبارها جدّة وجد أنّ لها حفيدا غيره.

وأنقذته أمّه من هذا الضياع عندما ذهبت به إلى (دار المسنين)، ليرى الجدّات هناك ويقدّم لهن الورود، ويستمتع بالحديث معهنّ.

في القصّة طريقة جديدة للتعاطف مع المسنين الموجودين في دور العجزة، والتي آثرت الكاتبة أن تسمّيها (دار الجدّات)، كما أنّ القصّة تعطي درسا في حبّ الكبار والتعاطف معهم عندما يكبرون في السّن، ووجوب العطف عليهم والاهتمام بهم.

وفي القصّة دروس أخرى مهمّة كاقتسام كريم كعكه مع وسيم، وفي تسمية كريم بهذا الاسم توافق رائع بين فعله الذي قام به وهذا الاسم.

3 – قصّة (أريد قوس قزح)

وهي قصّة علميّة أخرى ممتعة ومفيدة ، تدور أحداثها حول التعرّف على ظاهرة طبيعية خلابة تحدث على إثر سقوط المطر ، وهي ظاهرة قوس قزح ، والتي يُفضّل كتّاب آخرون تسميتها (قوس المطر أو قوس الله) وذلك تحرّجا من تسميته بالاسم المشهور عنه أكثر؛ (قزح) الذي يعني الشيطان..!

تبدأ القصّة بمشاهدة البطلة (لينا) من خلال نافذة غرفتها للمطر وهو ينزل، وعند توقّف المطر وإشراق الشمس؛ طلبت لينا من أمّها الخروج في نزهة قائلة:

"مَامَا، مَامَا، لَقَدْ تَوَقَّفَ المِطَرُ، وَأَشْرَقَتِ الشَّمْسُ.

ثُمَّ أمْسَكَتْ بِيَدِ أُمِّهَا، وَقَالَتْ:

ــ هَيَّا مَامَا، نَخْرُجُ فِي نُزْهَةٍ.. لَقَدْ وَعَدْتْنِي.."

لبت الأم طلب ابنتها وخرجت معها للتنزّه، ولفت انتباه لينا ظهور قوس قزح في السّماء، فسألت أمّها عن هذا المشهد الغريب، وفسّرت لها الأمّ هذه الظاهرة بطريقة علمية صحيحة:

"عِنْدَمَا يَسْقُطُ المِطَرُ، وَيَتَوَقَّفُ تَبْقَى بَعْضُ حُبَيْبَاتِهِ عَالِقَةً فِي الهَوَاءِ، ثُمَّ تُشْرِقُ الشَّمْسُ، فَيَدْخُلُ نُورُ أَشِعَّتِهَا فِي تِلْكَ الحُبَيْبَاتِ المَائِيَةِ، فَيَحْدُثُ قَوْسُ قُزَحٍ، بِأَلْوَانِهِ الجَمِيلَةِ.

الجميل في هذه القصّة التي تخاطب الفئة العمرية الصّغيرة جدا بين 4 و7 سنوات تقريبا؛ أنّها تستخدم الحوار الاستدراجي في تقديم المعلومات العلمية، فالأمّ لم تقل لابنتها أنّ قوس قزح يظهر بعد المطر مباشرة ثم يختفي بعد ذلك، بل طرحت عليها عدّة أسئلة، لتوصلها في النهاية إلى المطلوب وهو ظهور واختفاء قوس قزح، والسّر في ذلك.

وفي تلك الأسئلة نجد التفاصيل المطلوبة التي تلفت الانتباه إلى كيفيّة حدوث الظاهرة بالتدرّج، نزول المطر وشروق الشمس ثمّ ظهور (قوس قزح)، وهذا هو الحوار:

"قَالَتْ لَهَا أُمُّهَا: تَذَكَّرِي صَغِيرَتِي لِينَا، مَاذَا حَدَثَ بِالأَمْسِ؟

قالت لينا: خَرَجْنَا فِي نُزْهَةٍ.

1- قالت أمّها: وَمَاذَا حَدَثَ قَبْلَ الخُرُوجِ إِلَى النُّزْهَةِ؟

قَالَتْ لِينَا: سَقَطَ المِطَرُ.

قَالَتْ أُمُّهَا: ثُمَّ مَاذَا حَدَثَ بَعْدَ سُقُوطِ المِطَرِ؟

فكَّرَتْ لِينَا قَلِيلاً، ثُمَّ قَالَتْ: أَشْرَقَتِ الشَّمْسُ.

قَالَتْ أمُّهَا: وَاليَوْمَ ؟

2- قَالَتْ لِينَا: لَمْ يَنْزِلْ المِطَرُ، وَلَمْ تُشْرِقِ الشَّمْسُ.

قَالَتْ الأمُّ: اسْمَعِي عَزِيزَتِي: عِنْدَمَا يَسْقُطُ المِطَرُ، وَيَتَوَقَّفُ تَبْقَى بَعْضُ حُبَيْبَاتِهِ عَالِقَةً فِي الهَوَاءِ، ثُمَّ تُشْرِقُ الشَّمْسُ، فَيَدْخُلُ نُورُ أَشِعَّتِهَا فِي تِلْكَ الحُبَيْبَاتِ المَائِيَةِ، فَيَحْدُثُ قَوْسُ قُزَحٍ، بِأَلْوَانِهِ الجَمِيلَةِ".

هذا الحوار يأخذ بيد الطّفلة (لينا) إلى فهم ظاهرة حدوث قوس قزح، بشكل عملي وفعّال ما يجعل هذا المعلومة تبقى راسخة في ذهنها ولا تنساها أبدا. ومثل هذه القصص الرائعة والقيّمة علميّا وأدبيا نتمنى لو تُدرج في المناهج التعليمية، لتكون حافزا على طلب العلم ورافدا من أهمّ روافد المعرفة.

قصّة (المهرج فوفو)

هذه القصّة غريبة بعض الشيء، لكنّها تعالج قضيّة هامّة في حياة الأطفال، وهي علاقتهم بالكبار الذين يحتكون بهم في الأماكن التي يرتادونها باستمرار، مثل المدرسة التي يكون فيها بواب يستقبلهم صباح مساء، والعمّ فاضل بطل هذه القصّة كان محبّبا عند الأطفال وتربطه بهم علاقة وطيدة، لكنّه فقد وظيفته بسبب المرض، وجاء مكانَه حارس آخر لكنهم لم ينسجموا معه مثل العمّ فاضل، وفي يوم من الأيّام زارهم مهرّج بالمدرسة، وبدأ يقوم بحركاته البهلوانية الضّاحكة، وفجأة سقط منه أنفه في حِجر التلميذة (مروة) ولما اقترب منها لأخذ أنفه عرفته وصرخت قائلة:

- إنّه عمّو فاضل..

ليكتشف التلاميذ أنّ العامل فاضل رجع إليهم في هيئة مهرّج، وأخبرهم أنّه لم يتحمّل فراقهم، وأنّه صار يعمل مهرّجا ليبقى قريبا منهم دائما، يقول العمّ فاضل:

"ــ أحبّائي الصّغار.. لقد تَعَلَّمْتُ فَنَّ التَّهْريجِ حينَ كُنْتُ في المدِينَةِ، لِأُصْبِحَ "فوفو المهَرّج"، حتَّى أَكونَ إِلَى جانِبِكُمْ في المناسَباتِ السَّعيدَةِ.."

فكرة القصّة ممتازة، تنبّه إلى العلاقة الإنسانيّة التي ينبغي أن تربط التلاميذ بحارس مدرستهم، والذي قد يشكّل عنصرا فاعلا في تربية التلاميذ وتوجيههم إلى المسار التربوي الصّحيح.

أسلوب القصّة بسيط ومشوّق، اعتمدت فيه الكاتبة على التصوير الفني الدّقيق، والحوار المركز والألفاظ المنتقاة بعناية.

هذه النماذج القصصيّة للأديبة جميلة يحياوي تشير إلى كاتبة بارعة في مجال أدب الطفل، ذات تجربة عريضة، وعطاء كبير، أفادته تجربتها في مجال التربية فضلا عن موهبتها في الكتابة بشكل متميّز ومختلف ، بحيث كانت قصصها ذات بصمة خاصّة لا تخطئها العين، وتستهوي القارئ بفكرتها الفريدة وأسلوبها الجذّاب الجميل.

قصّة (زيتونات جدّتي)

من أجمل القصص التي كتبتها الأستاذة جميلة يحياوي، فيها كثير من القيم الإنسانيّة، وتعبّر عن البر والصّدقة، وتواصل الأجيال، والعمل الجماعي ومشاركة الصّغار في عمل الكبار

والتّدرب على إنجاز الأعمال الكبيرة ، وتتحدّث عن عمل يعتبر غريبا بالنّسبة للطّفل ويحتاج إلى الشرح والتوضيح ليفهمه، إنّه يتمثّل في كلمة (الوقف أو الحبس).

وتتلخّص القصّة في سفر الأب مع ابنه إلى الريف حيث يشارك معه في عمليّة جني الزّيتون، ويكتشف هناك العمل الجماعي والتكافل بين النّاس، ويتعرّف على زيتونات جدّته (زهرة)، التي كانت سببا في تحقيق أحلام أبيه، إذ أنفقت عليه أمّه منها حتّى تخرّج طبيبا، وبعد ذلك جعل أبوه تلك الأشجار وقفا على تعليم أبناء الفقراء والمساكين.

ويأخذ الفتى درسا بليغا من تصرّف أبيه هذا، وعندما يتمكن أبوه مرّة أخرى من شراء قطعة أرض ثانية، وينوي غرسها بأشجار الزّيتون؛ يتساءل متى يقوم بوقفها على الفقراء والمساكين:

"انْتَظَرْتُ عُطْلَةَ الرّبيعِ بِشَغَفٍ كَبيرٍ، لِنَعودَ -كَما وَعَدَني أبي- إلى القَرْيةِ، حتّى نَغْرِسَ زَيْتوناتٍ صَغيرةً في أرْضِنا الجَديدةِ، لِتُصْبِحَ بُسْتانًا جَميلاً، أتَمَنّى أنْ يَقِفَهُ أبي يَوْمًا".

استعملت الكاتبة كثيرا من التقنيّات الفنيّة لتبليغ فكرتها للطفل القارئ، حيث استخدمت طريقة السّفر إلى الرّيف، وهي مغامرة يحبّها الأطفال، واستخدمت شخصيّة الجدّة المحبّبة كذلك لدى الأطفال، كما وظّفت الحوار والوصف والحوار والتشويق، واستخدام القرآن الكريم في مثل قوله تعالى:

"لَنْ تَنالُوا البِرَّ حتّى تُنْفِقُوا مِمّا تُحِبُّونَ".

وكذلك الحديث النبوي الشريف، في قول الرّسول صلّى الله عليه وسلّم:

"إذا ماتَ ابْنُ آدَمَ انْقَطَعَ عَمَلُهُ، إلاّ مِنْ ثَلاثٍ: صَدَقَةٍ جارِيَةٍ أو عَمَلٍ يُنْتَفَعُ بِهِ، أوْ وَلَدٍ صالِحٍ يَدْعو لَهُ"

وفي الوصف تبهرك الكاتبة بالوصف الجميل والدّقيق الذي تبسطه بين يدي الأطفال، مثلما تقول في وصف العمل في جني الزّيتون:

"نَظَرْتُ حَوْلي، فَرَأَيْتُ رِجالاً مُتَسَلِّقينَ الأشْجارَ، وآخَرينَ حامِلينَ عِصِيًّا يَنْفُضونَ بِها الأَغْصانَ العالِيَةَ البَعيدَةَ، ونِسْوَةً تَحْتَ أشْجارٍ أُخْرَى في مَجْموعاتٍ صَغيرَةٍ، يَجْمَعْنَ حَبّاتِ الزَّيْتونِ المُتَناثِرَةِ على الأرْضِ، ويَضَعْنَها في سِلالٍ مِنَ السَّعَفِ، وكُلَّما

امْـتَلأَتْ سَـلَّةٌ، أَفْرَغْنَهـا في كـيسٍ كَبـيرٍ، أمّـا الأطْفـالُ الصِّـغارُ فَكـانوا يَنِطّـونَ حَـوْلَهُنَّ يَلْعَبونَ ويَمْرَحونَ".

لقـد وفّـرت الكاتبـة كـلّ أسـباب نجـاح قصّـتها هـذه، واكتملـت فيهـا كـلّ الجوانـب القيميّة والفنيّة، وتستحق أن توضع نسخة منها في كلّ بيت وفي كلّ مدرسة.

إنّ الأديبـة جميلـة يحيـاوي كاتبـة للأطفـال بارعـة، تملـك قلمـا ذهبيّـا وموهبـة قويّـة في تضـمين كتاباتهـا رسـائل قيمـة للـنشء في أسـلوب فـنّي رائـع، فيـه كـلّ مـا يجـذب الطفـل ويجعله ينهل من تلك الإبداعات ويستفيد منها أيّما استفادة.

عمر علواش شاعرا للأطفال

قَدْ قِيلَ إِنَّ ثَعْلَبًا مَكَّارَا * * قَدْ ذاَقَ طَعْمَ الجُوعِ حَتَّى خَارَا

فَجَدَّ فِي البَحْثِ عَنِ الغِذَاءِ * * فِي الغَابَةِ الفسِيحَةِ الأَرْجَاءِ ـــــــ عمر علواش من قصيدة (الثعلب والطّبل).

الشاعر عمر علواش[1] من الشعراء القلائل الذين إذا قرأتَ شعرهم تجد فيه ذلك الصّفاء والرونق السّاحر الذي يأخذ بلبّك من أوّل وهلة، في شعره تناسق عجيب وسلاسة مدهشة، يتحدّر الشعر من قلمه كمثل رقرقة الماء، أو انسياب نسيم الهواء.

له تجربة مثيرة في الكتابة للطّفل، تذكرنا أوّل ما تذكرنا بأسلوب العمالقة من أمثل شوقي وحافظ وإليا أبي ماضي، ممن لا تنبو بهم الألفاظ، ولا تلجئهم القوافي إلى حوشي الكلام. وهو شاعر مطبوع، يقول الشعر منذ صباه الأوّل، وتمتدّ تجربته إلى ستينيات القرن الماضي، ولعلّ وظيفتَه في سلك التعليم ثم التفتيش وتكوين إطارات التربيّة بعد ذلك أثرى تجربته الشعريّة، وأمدّها بالنّسغ اللازم للنمّو والتّبرعم..!

الشعر القصصي:

إنّ الشعر القصصي هو من أجمل وأروع قصائد الشعر التي تقدّم للأطفال، لأنّه جمع بين (الحسنيين)، الشعر الذي هو موسيقى وألحان، والحكاية التي فيها تسلية ومغامرة يؤثرها الأطفال على غيرها، وقد ظهر الشعر القصصي منذ القديم، وتلقّاه النّاس بحماسة بالغة وحفظت قصائده ورُويت وتوارثتها الأجيال، وقصائد أحمد شوقي طبّقت الآفاق في هذا المجال.

[1] – عمر علواش خريج المعهد الوطني لتكوين إطارات التربية، مفتّش التربية الوطنية للغة العربية، من مواليد (فرندة) ولاية تيارت (الجزائر)، له عدّة دواوين مخطوطة (من بوح الصّورة / حوارات في اللّغة والأدب) نشر في عدد من المجلّات والصّحف العربية منها (القدس العربي) و(الشروق) و(الأوراس نيوز) ومجلّة (البسكري الصّغير).

والشاعر عمر علواش له ديوان خصّصه للأطفال جرى فيه على هذا النّمط من الكتابة الشعريّة، نذكر من قصائده التي سنخضعها لمشرط النّقد: (1- الثعلب والطّبل/ 2 – العصفور والفخ / 3 – 4 – الأسد والكلب/ 5 – القطّة الوفيّة / 6 – الدّيك الجبان/7 – الكركي والثعلب/ 8 – أكلت يوم أكل أخي/ 9 – حمار في جلد أسد/ الحصان والخروف).

في المضمون:

من حيث المضمون كلّ هذه القصائد تحمل في طيّاتها رسالة تربويّة، فيها الموعظة النّافعة والحكمة البليغة ، ولكن بلسان الحيوانات جريا على طريقة الأقدمين، ونسجا على أسلوب أحمد شوقي الذي اقتبس موضوعاته من قصص (كليلة ودمنة)، مع إسقاط دقيق وذكيّ على الواقع، وكذلك شاعرنا الأستاذ عمر علواش، فمن تلك الموضوعات والمضامين، قصّة (أكلت يوم أكل أخي)، والتي تقابل في كتاب كليلة ودمنة قصّة (أكلت يوم أكل الثور الأبيض).

وهي طريقة جميلة في الاقتباس من التراث أو التناص معه وكذلك المتح من موروثنا الشعبي الزاخر بكثير من القصص القيمة التي تحمل العبرة والفوائد القيّمة، وهي تربط الأجيال بلغتها وقيمها الأصيلة التي لا حياة للأمّة من دونها ، ولكي نقترب أكثر من هذه القصص الشعريّة، والقصائد القصصيّة، نعرض هنا نماذج منها مع شيء مختصر من التحليل:

1 – قصّة (الأسد والكلب):

حَدَّثُوا فِيمَا مَضَى عَنْ أَسَدٍ * * هَدَّهُ الجُوعُ وَأَعْيَاهُ المرَضْ
وَاخْتَفَتْ هَيْبَتُهُ مِنْ بَعْدِمَا * * مَلأَ الأَرْضَ زَئِيرًا فَرَبَضْ
فَاسْتَغَلَّ الكَلْبُ مَا حَلَّ بِهِ * * فُرْصَتِي وَاتَتْ وَحظِّي قَدْ نَهَضْ
وَأَتَى يَخْتَالُ زَهْوًا إِنَّنِي بَعْدَكَ * * الحَاكِمُ مَالِي مِنْ عِوَضْ
وَمَضَى يُلْقِي سِبَابًا وَخَنَا * * وَسِبَابُ الكَلْبِ مُرٌّ كَالجَرَضْ
صَاحَتِ الأَشْبَالُ لَا تَسْكُتْ * * لَهُ نَحْنُ نَكْفِيكَ إِذاَ شِئْتَ الغَرَضْ
قَالَ مَا بِي اليَوْمَ مِنْ خَوْفٍ * * وَمَا مَرَضِي يَمْنَعُنِي مَهْمَا عَرَضْ

أَنَا أَرْضَى سَبَّهُ لِي عَلَنًا * * فَيَقُول النَّاسُ كَلْبٌ وَانْقَرَضْ

إِنَّمَا لاَ أَرْتَضِي أَنْ يَذْكُرُوا * * أَنَّ لَيْثًا قَاتَلَ الكَلْبَ وَعَضّ ...

قصيدة من ثمانية أبيات تراعي النَّفَس القصير للطفل لاسيما في قراءة الشعر، وكأنها قصّة قصيرة، والرّائع في هذه القصيدة أنّه يبدأها بعبارة القصاصين المشهورة قديما في الأدب العربي (حدّثوا فيما ما مضى)، والتي شُوّهت فيما بعد وصارت بتلك الصّيغة الهزيلة (كان يا ما كان في قديم الزمان)، فالعبارة الأولى أمتن وأقوى، وأكثر جزالة وفخامة، وتروي قصّة تجرؤ كلب على أسد، عندما رآه قد مرض وبدا له أنّ قوّته قد ضعفت، فجعل يسبّه متحديّا:

(وَمَضَى يُلْقِي سِبَابًا وَخَنَا * * وَسِبَابُ الكَلْبِ مُرٌّ كَالجَرَضْ)

وأرادت الأشبال أن تفتك بالكلب مستأذنة أباها الملك في ذلك، لكنّه نهاها وأمرها أن تتركه حتى لا يقال أنّ الأسد تنازل وصارع كلبا، فيسقط من أعين الحيوانات أو النّاس لأنّ المقصود بالقصّة هم النّاس وليسوا الحيوانات فهي عجماوات لا حول لها ولا قوّة ، ولا تتعظ من درس ولا تفهم حكمة.

والعبرة جليّة من هذه القصّة الشعريّة، وهي أنّ صاحب المكانة الرفيعة والهمّة العالية لا يتنزل وينحطّ إلى مرتبة السوقة والرّعاع ، فيحفظ كرامته ويصون ماء وجهه، حتى وإن تعرّض له مَن دونه بالقدح والسّباب.

2 – قصيدة (الحصان والخروف):

وهذه القصيدة مؤلّفة من ثمانية عشر بيتا، فهي طويلة إلى حدّ ما، ولذلك ذيّلها الكاتب بقوله للأطفال واليافعين، فهي لطولها تكون أنسب للأطفال الأكبر سنّا، مع أنّه يمكن أن يقدر على فهمها والترنّم بها المميزون والمبرزون من صغار الأطفال..!

ويقول الشاعر في مطلعها:

قَدْ سَاقَ فِي الأَخْبَارِ مَنْ رَوَاهَا * * نَصِيحَةً عَزَّتْ فَكُنْ فَتَاهَا

أَنَّ خَـرُوفًـا طَيِّـبَ السَّـرِيـرَه * * يَدُسُّ أَنْفَـهُ بِكُـلِّ سِيـرَه

كَانَ الحِصَانُ جَارَهُ المـُخْتَارَا * * وَالعُشْبُ يَكْسُو الأرْضَ حَيْثُ سَارَا

والملاحظ أيضا أنّ الشاعر بدأ أيضا هذه القصيدة بقوله (قَدْ سَاقَ فِي الأَخْبَارِ مَنْ رَواَهَا)، وهي لا تبعد كثيرا عن عبارة (حدّثوا فيما مضى..)، الطريقة القديمة الجذابة في سرد القصص، وتشويق القارئ وجذب اهتمامه.

بالإضافة إلى أنّ هذه القصص الشعريّة مروية على لسان الحيوان، أو أنّ أبطالها حيوانات، فتكون مرّة بين الأسد والكلب ومرة عن الدّيك وأخرى عن الثعلب وهكذا ، كلّها حيوانات من التي تجعل الطفل يقبل على القصّة بلهفة.

وهنا القصّة تروي ما وقع بين خروف وحصان والفلاح الذي يملكهما، إذ مرض الحصان وعجز عن العمل في المزرعة، وفكّر الفلاح بذبحه بعدما يئس من شفائه، فسمع الفلاح ذلك الخبر فأسرع وحذّر الحصان، وعندما علم الحصان بذلك قام فزعا وشعر بالنشاط في كامل بدنه، ورجعت إليه قوّته، ولما رآه الفلاح في الصباح على تلك الحال من الصّحة والنّشاط ؛ فرح واستبشر وقرّر ذبح الخروف تعبيرا عن فرحته وابتهاجه.

وختم الشاعر قصيدته بقوله:

"مَنْ لَمْ يَصُنْ سَمْعًا وَلاَ لِسَانَا

كَانَ الخَرُوفَ كَائِنًا مَنْ كَانَا"

وهذه حكمة قيّمة أحسن الشاعر إذ ختم بها قصيدته، وتذكرنا بالحكمة التي ختم بها أحمد شوقي قصيدته (الحمامة الحمقاء)، والتي يقول فيها:

"ملكت نفسي * * لو ملكت منطقي"

بمعنى أنّ الذي يصون لسانه يصون نفسه، فاللسان هو سبب كلّ زلل وهو أكبر سبب للهلاك، وقد أجاب النبيّ صلّى الله عليه وسلّم ذلك الصحابي الذي سأله إن كانوا مؤاخذون بألسنتهم، فقال له:

"وَهَلْ يَكُبُّ النَّاسَ عَلَى وُجُوهِهِمْ –أَوْ قَالَ عَلَى مَنَاخِرِهِمْ- إِلَّا حَصَائِدُ أَلْسِنَتِهِمْ ؟"!"

ولكن يبقى إشكال في القصيدة قد يربك الطّفل والقارئ، ويشوّش عليه الفكرة المقصودة، وهو أنّ الخروف ناصح لصديقه مخلص له في ذلك، فكيف يكون جزاؤه (الذّبح)..؟ وتعود عليه نصيحته بالشرّ الوبيل، ويقول:

مَنْ لَمْ يَصُنْ سَمْعًا وَلاَ لِسَانَا

كَانَ الخَرُوفَ كَائِنًا مَنْ كَانَا

هذه الحكمة خارج هذا السياق القصصي لا غبار عليها، لكن الإطار العام الذي وضعها فيه الشاعر، جعلها كأنها نشاز..! ورغم ذلك تبقى القصيدة تحمل فكرة جملية، ومغامرة شيّقة، لا تخلو من فوائد جمّة.

3 – قصيدة الثَّعْلَبُ وَالطَبْل:

وهي قصيدة مأخوذة من التراث الشعبي الغني بالقصص التي فيها الحكم والدّروس والأمثال، ولو يستثمر فيها كتّاب أدب الطّفل مع شيء من التحوير والتهذيب؛ لأعطوا ثروة كبيرة من الإبداع الشعري والقصصي والمسرحي تنهل منها الأجيال، وتنشأ على القيم الأصيلة النّافعة وتحصنهم من كلّ التيارات الغربيّة الجارفة التي تعمل على تقويض المجتمع المسلم من جذوره.

يبدأ الشاعر قصيدته بقوله:

قَدْ قِيلَ إِنَّ ثَعْلَبًا مَكَّارَا قَدْ ذَاقَ طَعْمَ الجُوعِ حَتَّى خَارَا

فَجَدَّ فِي البَحْثِ عَنِ الغِذَاءِ فِي الغَابَةِ الفسِيحَةِ الأَرْجَاءِ

حَتَّى رَأَتْ عَيْنَاهُ بَعْدَ الكَدِّ طَبْلاً كَبِيرًا فاَقَ كُلَّ حَدِّ

مُعَلَّقًا بِدَوْحَةٍ عَظِيمَهْ ذَاهِبَةٍ فِي الجَوِّ مُسْتَقِيمَه

فَقَالَ يَا سَعْدِي وَيَا بُشْرَايَا قَدْ نِلْتُ مِنْ بَعْدِ العَنَا عَشَايَا

وَلَمْ يَزَلْ قَضْمًا بِهِ وَعَضَّا حَتَّى هَوَى مِنْ فِعْلِ ذَاكَ أَرْضَا

لكِنَّهُ لِحَظِّهِ المنْكُودِ لَمْ يَحْظَ بِالمأْمُولِ وَالمقْصُودِ

وَلَمْ يَجِدْهُ غَيْرَ جِلْدٍ وَفَقَطْ إِنْ لاَمَسْتْهُ هَبَّةُ الرِّيحِ سَقَطْ

فَقَالَ قَوْلاً بَاقِيًا فِي النَّاسِ وَمَا لَهُ لِصِدْقِهِ مِن نَاسِ

قَدْ خَابَ مَنْ ظَنَّ انْتِفَاخَ الجِسْم مَظِنَّةً لِلْعِلْمِ أَوْ لِلْفَهْم

هذه القصّة تشبه قصّة (الثعلب والعنب الحصرم)، الثعلب الذي أراد الوصول إلى العنب، لكنّه كان عالٍ جدا، وعندما أعجزه الوصول إليه ، قال: إنّ هذا العنب حصرم..! وكذلك هذا الثعلب في هذه القصيدة القصصيّة، الثعلب مكّار عادة وذلك طبع فيه لا يفارقه، وأصابه جوع شديد، فسعى في الغابة يبحث عن طعام، فرأى طبلا عالقا في أعلى الشجرة، فظنّه طعاما ، وشرع في قضمه والتهامه، ولكنه لم يزد على أن أضرّ بأسنانه، فنطق بحكمة المجرّب (وليس كمثل حكمة المجرّب):

قَدْ خَابَ مَنْ ظَنَّ انْتِفَاخَ الجِسْم * * مَظِنَّةً لِلْعِلْمِ أَوْ لِلْفَهْم

حكمة بالغة ساقها الشاعر ليحفظها الأطفال ويتعظوا بها، وقصّة قصيرة فيها الطّرفة والتّسلية. تتكوّن من عشرة أبيات، في عذوبة ألفاظ ومعان جميلة جدّا.

4 – قصيدة (العصفور والفخ):

وفكرة العصفورة والفخ شائكة كثيرا في تراثنا الأدبي، وظّفها كثير من الأدباء والشعراء وكلٌّ له طريقته وأسلوبه في ذلك، يقول الأستاذ عمر علواش في هذه القصيدة:

وَجَدَ العُصْفُورُ فَخًّا * * ذَاتَ يَوْمٍ فَنَفَرْ

وَدَنَا مِنْهُ بِرِفْقٍ * * وَفُضُولٍ وحَذَرْ

قَالَ مَنْ أنْتَ ومَاذَا * * تَبْتَغِي وَالجَوُّ حَرٌّ

ولِمَنْ أَعْدَدْتَ حَبْلاً * * وَعَصًا هَلْ مِنْ خَطَرْ

وَأَرَى حَوْلَكَ قَمْحًا * * وشَرَابًا وثَمَرْ

قَالَ لاَ تَعْجَبْ فَإِنِّي * *كُلَّ يَوْمٍ فِي سَفَرْ

أَنْشُرُ الخَيْرَ وأَسْقِي * *كلَّ ظَمْآنَ عَبَرْ

فاقْتَرِبْ منِّي قَلِيلاً * * لاَ تَخَفْ مِنْ أيِّ شَرٌّ

صَدَّقَ المِسْكِينُ قَوْلاً * * سَاقَهُ دُونُ نَظَرْ

وَدَنَا مِنْهُ فَأَمْسَى * * بَيْنَ فَكَّيْهِ انْحَصَرْ

ربَّمَا كانَ سينْجُو * * لوْ تَأَنَّ وَصَبَرْ

(يُقْبَلُ القَوْلُ إِذَا مَا * * وَافَقَ السَّمْعَ البَصَرْ)

اثنتا عشر بيتا ضمّت قصّة وحكمة وتسلية، وهي الأركان الثلاثة اللازمة لنجاح العمل الأدبي الموجّه للطفل، مع خفّة ألفاظ وسهولة معانٍ، بطل القصّة القصيدة (عصفور) غِرّ ساذج، يقترب من فخ وهو لا يعلم ما يخبئه له، ولكنّه ابتعد عنه لحظة؛ بعامل الفطرة التي تحذر من كلّ شيء غريب مجهول، لكنّ إغراء وجود الطعام (الحبّ) والماء والثمر، جعله يعود مرّة أخرى ويقع بينه وبين الفخّ حوار، فيغريه الفخ بالاقتراب أكثر حتى وقع بين فكّيه، ولم يعد من سبيل إلى النجاة، فيقول الشاعر حينها:

رُبَّمَا كانَ سينْجُو * * لوْ تَأَنَّ وَصَبَرْ

(يُقْبَلُ القَوْلُ إِذَا مَا * * وَافَقَ السَّمْعَ البَصَرْ)

وحكمة أخرى يختم بها الشاعر قصيدته القصصيّة، وملخصها أنّ الصّبر وعدم الاندفاع ينجي صاحبه، وأنّ الكلام لا يكفي فيه مجرّد السّماع، بل لابدّ من المعاينة والمشاهدة، حتى يتطابق القول مع الواقع حقّا، فلا يخدعنّ إنسان بزخرف القول.

وهذه خاصية مشتركة في كلّ القصائد التي كتبها الشاعر عمر علواش للطّفل، إذ يختمها دائما بحكمة أو قول بليغ فيه عبرة وفائدة.

وهذه قصيدة سارت على السَّنن نفسه:

5 – قصيدة (حِمَارٌ فِي جِلْدِ أَسَد):

تتكوّن هذه القصيدة من أحدَ عشرَ بيتا، فلو أنّها كانت قصّة لصنّفناها في مجال القصّة القصيرة جدّا، يقول فيها الشاعر ساردا:

رَأَىَ الحِمَارُ صُدْفَةً جِلْدَ أَسَدْ * * فِي الأَرْضِ مِنْ غَيْرِ رَقِيبٍ أوْ رَصَدْ

فاحْتَالَ حَتَّى خَاطَهُ لِبَاسَا * * وصَارَ فَوْقَ جِسْمِهِ مَقَاسَا

فَهَابَهُ كُلُّ الَّذِي رَآهُ * * وصَارَ خَوْفًا مِنْهُ لا يَلْقَاهُ

إِذَا مَشَى فَبِاخْتِيَالٍ يَمْشِي * * كَمَلِكٍ ذِي سَطْوَةٍ وعَرْشِ

يَخْتَارُ مَا لَذَّ لَهُ وَطَابَا * * وَمَنْ دَعَاهُ صَاغِرًا أجَابَا

لَكِنَّهُ فِي غَمْرَةِ الإِعْجَابِ * * بِحَالِهِ ودُونَمَا أَسْبَابِ

حَلاَ لهُ النَّهِيقُ بيْنَ النَّاسِ * * فَأَعْجَبْ لَهُ مِنْ غَافِلٍ وَنَاسِ

فَأَدْرَكُوا بِأَنَّهُ الحِمَارُ * * والجِلْدُ فَوْقَهُ هُوَ المُعَارُ

وأَقْبَلُوا عَلْيْهِ ضَرْبًا بِالعَصَا * * لِأَنَّهُ أزْعَجَهُمْ لَمَّا عَصَى

مَنْ ظَنَّ أنَّ الثَّوْبَ رأْسُ مَالِهِ * * فقدْ زَرَى بِعَقْلِهِ وَحَالِهِ

مَا المرْءُ إِلاَّ القَلْبُ وَالِلّسَانُ * * الأَصْغَرَانِ لِلْفَتَى عُنْوَانُ

تذّكرني هذه الأبيات بالحديث النّبوي الذي يقول:

(المتشبع بما لم يعط كلابس ثوبي زور)، وبقول الشاعر:

"كالهرّ يحكي انتفاخا صولة الأسد" وفي تراثنا الشعبي مقولة بليغة (المكسي بشي الناس عريان).

وفيه درس وعبرة لكلّ معتبر أنّ من يتحلّى بغير حقيقته سيُفضَح لا محالة، طال الزمان أو قصر..!

6 – قصيدة (أكِلتُ يوم أُكِل أخي)

ومن خلال العنوان يدرك مضمونها ومدى تقاطعها أو توافقها مع قصّة كليلة ودمنة (الثيران الثلاثة)، وساقها الشاعر على هذا الوجه:

أتَانَا مِنَ الأَخْبَارِ يومًا عَجِيبَةٌ * * سَتَبْقَى بَقَاءَ النَّاسِ تُرْوَى وتُذْكَرُ

ثَلاَثَةُ ثِيرَانٍ تَعِيشُ سَعِيدَةً * * مُنَعَّمَةً مَا مَسَّهَا قَطُّ مُنْكَرُ

تَخَالَفَتِ الأَلْوَانُ فِيها فَأَبْيَضٌ * *كَبِيرٌ لهُ رَأْيٌ مُطَاعٌ مُقَدَّرُ

وأوْسَطُهَا كالَّلَيْلِ أَسْوَدُ حَالِكٌ * * وأصْغَرُهَا بَادِي المِسَرَّةِ أَحْمَرُ

أتَى أَسَدٌ يَوْمًا يَرُومُ اقْتِنَاصَهَا * * وسارَ إليهَا وَاثِقًا يتَبَخْتَرُ

فَصَدَّتْهُ لَمَّا أَنْ تَوَحَّدَ أَمْرُهَا * * فعادَ كَسِيرًا خَائِبًا يَتَعَثَّرُ

وفَكَّرَ حتَّى قَادَهُ طُولُ فِكْرِهِ * * لِرَأْيٍ بِهِ صَفُّ الجَمَاعَةِ يُكْسَرُ

وغَافلَهَا لما تَوَارَى كَبِيرُهَا * * بعِيدًا وأبْدَى عَكْسَ مَا هُوَ مُضْمَرُ

ألاَ أيُّهَا الثَّوْرَانِ عِنْدِي نَصِيحَةٌ * * ومِثْلُكُمَا بالنُّصْحِ أَوْلَى وَأَجْدَرُ

أرَى أَنَّ ذَاكَ الثَّوْرَ أَصْبَحَ شَرُّهُ * * وَشِيكًا وَظُلْمُ الثَّوْرِ لا يُتَصَوَّرُ

إذَا شِئْتُمَا أَكْفِيكُمَا اليومَ أَمْرَهُ * * وإِنِّي بِهَذَا النَّابِ أقْوَى وأَقْدَرُ

فَقَالاَ نَعَمْ فَانْسَلَّ كالسَّهْمِ مُسْرِعًا * * إِلْيهِ وبَاغِي الشَّرِّ لاَ يَتَأَخَّرُ

ومَا هِيَ إلاَّ لَحْظَةٌ صَارَ بعدها * * طَعَامًا لهُ والجُوعُ باللَّحْمِ يُقْهَرُ

ولما مضَى يوْمَانِ أقْبَلَ خِلْسَةً * * يُنَادِي الصَّغِيرَ الغِرَّ والعَطْفَ يُظْهِرُ

أرَى أنَّ هَذِي الأرضَ ضَاقَتْ عَلَيْكُمَا * * وَحَتْمًا سيَفْنَى عُشْبُهَا حِينَ تَكْبُرُ

فإنْ شِئْتَ أنْ تَحْيَا وما مِنْ مُنَافِسٍ * * يُقَاسِمُكَ العُشْبَ الطَرِيَّ فَتَخْسَرُ

سَأُلْحِقُ ذَاكَ الثَّورَ سِرًّا بِمَنْ مضَى * * ولاَ مَنْ رَأَى ما قدْ جَرَى فَتُعَيَّرُ

فوافقَ مخدوعًا بمَا قالَهُ لَهُ * * وصارَ وحيدًا نادِمًا يتحسَّرُ

وقد كانَ ما قدْ خافَ إذْ بعْدَ مُدَّةٍ * * أتَى الأسدُ الغَدَّارُ والشَّرُّ يَقْطُرُ

يقولُ لهُ قدْ حانَ دورُك إنَّني * * وَحَقِّكَ يَوْمِي كلَّهُ أتَضَوَّرُ

فقالَ لهُ كُلْنِي إِذَا شِئْتَ إِنَّنِي * * أُكِلْتُ معَ الثَّورِ الَّذِي تَتَذَكَّرُ

هذه القصيدة أطول أخواتها إذ سجّلت واحدا وعشرين بيتا، تروي بطبيعة الحال ما حدث للثيران الثلاثة في القصّة التراثية المشهورة (كليلة ودمنة)، وتُبين كيف انفرد بها الأسد واحدا واحدا لمّا تخلَّت عن بعضها، بداية بتخلّيها أوّل الأمر عن الثور الأبيض، وكانت تلك بداية هلاكها جميعا، ومن ثمّ جاء القول الشهير: (أكلت يوم أكل الثور الأبيض).

وسنبيّن خصائص هذا التقاطع في هذه القصّة وفي غيرها مع قصّة كليلة ودمنة أو بعض قصص التراث وأهميّة ذلك حين حديثنا عن البناء الفنّي..!

7 – قصيدة (القِطَّة الوَفِيّة)

تروي هذه القصيدة قصّة قطّة ألفت أهل بيت وألفوها، وكانت معها بطة صديقة لها، كانت بينهما صحبة، وهذه قصتها شعرا في اثني عشر بيتا:

كَانَتْ فِي البَيْتِ لَنَا قِطَّهْ * * أَلِفَتْ فِي عِيشَتِهَا بَطَّهْ

صَارَ الإِثْنَان وَيَا عَجَبِي * * أَغْلَى فِي الحُبِّ مِنَ النَّسَبِ

وَغَدَا الأَوْلاَدُ لَهُمْ تبَعَا * * أَوْفَى، مَحْمُودُ، سُهَا، وَدُعَا

جَلَبَا فِي البَيْتِ لَنَا المرَحَا * * فَغَدَا كَالجَنَّة مُنْشَرِحَا

فِي يَوْمٍ أَفْزَعَنَا خَبَرُ * * مَا عَادَ لهرتنا أَثَرُ

فَبَكَى الأَوْلاَدُ لِمَا حَصَلاَ * * وَرَأَيْنَا البَحْثَ لَنَا أَمَلاَ

لَكِنْ وَلِسُوءِ الحَظِّ مَضَتْ * * أَيَّامٌ سَبْعَةُ مَا ظَهَرَتْ

وَمَضِى الأُسْبُوعُ لَنَا عَامَا * * وَالبَطَّةُ تَشْكُو الآلاَمَا

حَتّى اسْتَسْلَمْنَا لِلْيَأْسِ * * وَطَوَيْنَا. الصَّفْحَةَ بِالأَمْسِ

فَإِذَا بِالهِرَّةِ قَدْ عَادَتْ * * لِلْبَيْتِ تَنِطُّ كَمَا كَانَتْ

وَتُدَاعِبُ بِالفَرَحِ البَطَّهْ * * وَالأُسْرَةَ تَمْرَحُ فِي غِبْطَهْ

الحُرُّ لِأَرْضِه لاَ يَنْسىَ * * فَالأَرْضُ بِقَلْبِهِ صُبْحَ مَسَا

ومضمونها معروف ويعيشه كثير من النّاس لاسيما في البادية، قطة تضيع من بيت أهلها ثم تعود وإن طال الزمن أو بعدت المسافة، لأنّ حسّ الوفاء لدى الحيوانات أقوى حتى من بعض البشر، ثم يختم الشاعر قصيدته بحكمة بليغة: (الحُرُّ لِأَرْضِهِ لاَ يَنْسىَ).

8 – قصيدة (الدِّيكُ الجَبَانُ):

تَحَدَّثُوا فِيمَا مَضَى عَنْ دِيكِ * * يَعِيشُ وَسْطَ الخُمّ كَالمِلِيكِ

يَزْهُو بِرِيشٍ نَاعِمٍ بَرَّاقِ * * وَصَوْتُهُ يَجُولُ فِي الآفَاقِ

أَتَاهُ يَوْمًا مَالِكُ الدَّجَاجِ * * وَقَالَ قَوْلَ الغَاضِبِ المُهْتَاجِ

أَزْعَجْتَنَا يَا دِيكُ بِالصِّيَاحِ * * حَتَّى حُرِمْنَا النَّوْمَ فِي الصَّبَاحِ

لَئِنْ سَمِعْتُ صَوْتَكَ المَبْحُوحَا * * فَجْرَ غَدٍ تَعْلُو بِه السُّطُوحَا

لأَنْتُفَنَّ الرِّيشَ منك نَتْفَا * * حَتَّى يَكُونَ المَشْيُ مِنْكَ زَحْفَا

فَقَالَ سَمْعًا –سَيِّدِي– وَطَاعَهْ * * وَأَصْبَحَ المِسْكِينُ كَالبِضَاعَهْ

وَبَعْدَ شَهْرٍ أَوْ يَزِيدُ * * عَادَ صَاحِبُهُ بِفِكْرَةٍ وَقَّادَهْ

وَقَالَ نَقْنِقْ إِنْ أَرَدْتَ حَاجَهْ * * وَبِضْ لَنَا كَهذِهِ الدَّجَاجَهْ

فَأَجْهَشَ المِسْكِينُ بِالبُكَاءِ * * وَقَالَ قَوْلَ النَادِمِ المسْتَاءِ

يَا لَيْتَ أَنِّي قَدْ بَقِيتُ دِيكَا * * يَوْمًا وَمتُّ بَعْدَهَا وَشِيكَا

يقال في المثل الشعبي عندنا (عش نهارْ فرّوج ولا تعشْ عمرك دجاجة) ، يعني أن تكون رجلا وتموت، خيرا من أن تعيش وتعمّر في الذّل والمهانة، وقد رضي هذا الدّيك أن يسكت حين طلب منه صاحبه ذلك، فطلب منه بعد ذلك ما يصيبه بالذّل والهوان وهو أن ينقنق أو يبيض مثل الدّجاج. وإلا يفعل يُسَمِ الخسفَ والهوان..!

9 – قصيدة (الكُرْكِيُّ وَالثَّعْلَبُ):

تاسع القصائد القصصيّة التي نستعرضها في هذه القراءة ؛ قصيدة (الكركيّ والثعلب)، والتي تبيّن أنّ الثعلب بطبيعته المكر، ويكفي المرء أن يسلم من بين أنيابه، وعندما عَلِق عظم بحلق الثعلب، وخلّصه منه انتظر الكركيّ الشكر، فكان جوابُ الثعلبِ أن يكفيك من الشكر أن لم آكلك وأبتلعك حين كان منقارك في فمي..!

بَيْنَمَا الثَّعْلَبُ يَزْهُو فَرَحَا * * بِغَزَالٍ صَادَهُ ذَاتَ ضُحَى

إِذْ بِهِ دُونَ انْتِبَاهٍ لِلْخَطَرْ * * سَدَّ عَظْمٌ حَلْقَهُ حَيْثُ اسْتَقَرْ

فَدَعَا هَلْ مِنْ مُعِينٍ يَا رِفَاقْ * * أَلَمُ الحَلْقِ فَظِيعٌ لاَ يُطَاقْ

فَارْحَمُونِي لاَ يَطُلْ هَذا العَنَا * * وَلَكُمْ مِنّي مَعَ الشُّكْرِ الثَّنَا

وَسَأَبْقَى خَيْرَ مَنْ يَحْمِي الذِّمَارْ * * إِنْ دَهَى الخَطْبُ بِلَيْلٍ أَوْ نَهَارْ

جَفَلَ الكُلُّ وأَبْدَى الأَسَفَا * * مَا رأَيْنَا ثَعْلَبًا يَوْمًا

وَفَى وَمَضَواْ وُالحَالُ بَاقٍ لاَ يَزَالْ * * غيرَ كُرْكِيٍّ دَنَا مِنْهُ وَقَالْ

اسْتَرِحْ يَا صَاحِبِي وَافْتَحْ فَمَكْ * * فَبِمِنْقَارِي سَأُنْهِي أَلَمَكْ

ثُمَّ لَمْ يَمْضِ سِوَى وَقْتٍ يَسِيرْ * * وإِذَا الثَّعْلَبُ مَزْهُوًا يَسِيرْ

وَمَضَى دُونَ الَّذِي كَانَ وَعَدْ * * لَمْ يَقُلْ حَتَّى لَهُ شُكْرًا وَصَدّْ

عَجِبَ الكُرْكِيُّ مِنْ هَذَا الجَفَا * * أَنْتَ أَصْلُ المَكْرِ حَقًّا وَكَفَى

كَشَّرَ الثَّعْلَبُ عَنْ نَابٍ وَقَالَ * * كُفَّ يَا مَغْرُورُ عَنْ هَذَا الجِدَالْ

كُنْ قَنُوعًا أَيُّهَا الغِرُّ العَنِيدْ * * أَنْ نَجَا رَأْسُكَ مِنْ مَوْتٍ اَكِيدْ

العبرة من القصّة يمكن تلخيصها في المثل القائل:"يكفيك من الغنيمة الإيّاب"، فالرّجوع والعودة سالما تغني عن كلّ غنيمة..!

10 – قصيدة (رِضَا الناس) ...

وفي ختام هذا الاستعراض التحليلي لقصائد الدّيوان نذكر هذه القصيدة الرّائعة (رضا النّاس)، وفي مضمونها قصّة شائعة في التراث العربي، وهي قصّة الرّجل الذي كان يركب حمارا مع ابنه، فأخذ الناس عليه ذلك، فلمّا نزل وآثر نفسه بالرّكوب وأنزل ابنه تخفيفا عن الحمار؛ شنع عليه النّاس في ذلك، ولما نزل وأركب ابنه، سفهوا سلوك الابن وظنوه عاقا، وعندا نزل الاثنان وتركا الحمار؛ وصموهما بالحمق والجهل، فقال الأب لابنه:

(رضا النّاس غاية لا تردك) فصارت مثلا، وما أحسن ما نضمها الشاعر في هذه الأبيات:

حَدَّثُوا أَنَّ جُحَا فِيمَا مَضَى * * قَصَدَ السَّوقَ مَعَ الطِّفْلِ رِضَا

رَكِبَا ظَهْرَ حِمَارٍ فِي الطَّرِيقْ * * كَانَ عَونًا لَهُمَا فِي كُلِّ ضِيقْ

فَإِذا بِالنَّاسِ تُبْدِي الأَسَفَا * * أَيُّ جُرْمٍ هَذَا يَا أَهْلَ الجَفَا

مَا رَأيْنَا مِثْلَ ذَا فِي البَّشَرِ * *كَسَرَا ظَهْرَ الحِمَارِ الأَغْبَرِ

قَالَ فَلْتَمْشِ إِذَنْ يَا وَلَدِي * * سَوْفَ أَبْقَى فَأَنَا شَيْخٌ رَدِي

فَإِذَا بِالْقَوْمِ لاَذُوا بِالعَجَبْ * * إِنَّ ذاَ وَاللَّهِ مِنْ سُوءِ الأَدَبْ

رَحْمَةً بِالطِّفْلِ فَالطِّفْلُ صَغِيرْ * * رُبَّمَا أَرْهَقَهُ طُولُ المِسِيرْ

أَرْكَبَ الشَّيْخُ الفَتَى ثَمَّ مَشَى * * خَلْفَهُ حَتَّى تَهَاَوَى عَطَشَا

قَالَ بَعْضُ النَّاسِ مَا هَذَا العُقُوقْ * * يَرْكَبُ الطِّفْلَ وَذُو الشَّيْبِ يَسُوقْ

قَالَ فَلْنَمْشِ مَعًا ثُمَّ نَرَى * * هَلْ يَكُفُّ النَّاسُ عَنْ هَذَا المِرَا

بَعْدَمَا سَارَا قَلِيلاً سَمِعَا * * قَهْقَهَاتِ القَوْمِ مِمَّا أَبْدَعَا

عِنْدَهَا قَالَ جُحَا قَوْلاً حَضَرْ * * شَاعَ بَيْنَ النَّاسِ بَدْوًا وَحَضَرْ

كُلُّ مَنْ حَاوَلَ إِرْضَاءَ الوَرَى * * عَادَ مِنْ بَعْدِ اجْتِهَادٍ لِلْوَرَا ...

قصائد كلّها عبرة وحكمة وفوائد جمّة، مقتبسة من التراث العربي، أو من كتاب (كليلة ودمنة)، فيها الطّرفة والجمال والحكي المغري، في أغلبها مختصرة في أبيات قليلة، إلا واحدة منها طالت شيئا يسيرا ولعلّها للفتيان أنسب وبهم أليق..!

هندسة البناء الفنّي في ديوان عمر علواش

كلّ شعر جيّد يخبئ في ثناياه تراكيب فنيّة قويّة، وأساليب تعبيريّة بديعة، والشاعر الموهوب هو الذي ينوّع في بنائه الفنّي، فيأتي بما يدهش القارئ ويغريه بمتابعة القراءة والتمتع بجمالياتها الفنيّة، بل ومعاودة القراءة وحفظ تلك الأشعار والترنّم بها، لاسيما إذا كانت تلك الأشعار موجّهة للطفل.

ولازلت أردّد باستمرار قصيدة أمير الشعراء أحمد شوقي:

برز الثعلب يوما في شعار الواعظينا * * ومشى في الأرض يهدي ويسبّ الماكرينا

فلا أكاد أشبع من قراءتها والتغنّي بأبياتها، لما تضمنته من حكمة وعبرة، ولما صيغت به من أسلوب فنّي فتّان، وأكثر ما شدّني في شعر الأستاذ عمر علواش[1] هو هذه الخصائص الفنيّة التي تأسرك وتأخذ بمجامع نفسك، وتحبّ أن تعاود قراءتها مرارا، وأنت (طفل صغير) في أثواب كهل وخَطَ الشيبُ شعر رأسه..!

أهم الخصائص الفنيّة:

من الصّعب الإحاطة بكلّ الخصائص الفنيّة لقصائد الدّيوان، ولكن يمكن التحدّث عن أبرزها وأهمها لمعرفة السّر وراء هذه الموهبة المتميزة وهذه القصائد الرّائعة، ومع القراءة المتكررة والتأمل العميق خرجنا بالخصائص التالية:

---

[1] – عمر علواش خريج المعهد الوطني لتكوين إطارات التربية، مفتّش التربية الوطنية للغة العربية، من مواليد (فرندة) ولاية تيارت (الجزائر)، له عدّة دواوين مخطوطة (من بوح الصّورة/ حوارات في اللّغة والأدب) وديوان شعري للأطفال بعنوان (سلسلة قصائد للأطفال)، نشر في عدد من المجلّات والصّحف العربية منها (القدس العربي) و(الشروق) و(الأوراس نيوز) ومجلّة (البسكري الصّغير).

1 – **المتح من التراث**:

يشكل التراث في شعر عمر علواش ركيزة أساسيّة من ركائز بنائها الفنيّ، موضوعا وتناصّا، فهو أحيانا يأخذ الموضوع نفسه ويعيد تشكيله من جديد في قالب مبتدع، وأحيانا نجد في بعض الأبيات تناصا بيّنا مع نصوص تراثية شائعة، وتفصيلا لذلك نقول:

ففي قصيدة (**الأسد والكلب**) و(**الحصان والخروف**) و(**الثعلب والطبل**) و(**العصفور والفخّ**) و(**حمار في جلد أسد**)، وهكذا في معظم القصائد نجد تلك الخلفيّة التراثية سواء المأخوذ منها من (**كليلة ودمنة**)، أو من الأدب الشعبي وقصص العرب القديمة، وميزة هذا الاقتباس أنّ الإنسان يحنّ دوما إلى القديم ويعتبره مددَه الأصلي، في التزوّد بتجارب الحياة وأخذ الحكمة من الأقدمين والتأسي بالمأثور من أعمالهم ومواقفهم.

ومن أوضح تلك القصائد المقتبسة؛ قصيدة (**أكِلتُ يوم أُكِل أخي**) التي تلخّص قصّة (**أكلت يوم أكل الثور الأبيض**) من كتاب (**كليلة ودمنة**) لعبد الله بن المقفّع، وليس الشاعر عمر علواش أوّل من يقتبس هذه القصّة في شعره، بل سبقه إلى ذلك عدد من الشعراء والكتاب، وعلى رأسهم أحمد شوقي (مصر) ومحمّد جمال عمرو (الأردن)، وتمّ توظيفها سياسيّا من كثير من الأدباء، وكتّاب الصّحافة.

والفارق بين النّص الأصلي ونصّ كليلة ودمنة أنّ النّص الأصلي نثر وهذا النصّ شعر، وهذا المميّز في الأمر، إذ الشعر يمكن حفظه والتغنّي به بخلاف النثر، وبالنسبة للعنوان فإنّ الشاعر غيَّر فيه شيئا يسيرا، إذ استبدل عبارة (الثور الأبيض) بكلمة واحدة هي كلمة (أخي)، ومن النّاحية الفنية، كلمة أخي أضعف بلاغيّا من العبارة الأصلية، لكن لابدّ من الإشارة إلى أنّ العبارة الأصلية موجّهة في الأساس إلى الكبار، وفيها تعبير مجازي يصعب على الأطفال فهمه بشكل مباشر، ولذلك استبدلها الشاعر بكلمة (أخي)، ليحقق المعنى التربوي المقصود.

وفي قصيدة (العصفور والفخّ) نوع من الاقتباس أيضا من التراث، من القصّة المشهورة والتي سبق إليها أيضا أحمد شوقي وصاغها شعرا في قصيدته (الصّيّاد والعصفورة)، يقول في بعض أبياتها:

"ألقى غلام شركا يصطاد * * وكلّ من فوق الثرى يصطاد

ومن القصائد المأخوذة من التراث أيضا قصيدة (**رضا النّاس**)، وهي مقتبسة من قصّة جحا، الذي كان يقود حمارا مع ابنه، فركب هو وابنه فعاتبه النّاس لأنه لا يشفق على الحمار، فنزل هو وترك ابنه راكبا، فقالوا: ولد عاق يركب هو ويترك أباه. فأنزل جحا ابنه وركب هو، فقالوا: أب قاس، يركب هو ويترك ابنه، فنزل هو ومشى مع ابنه وتركا الحمار، فقال الناس هذان غبيّان يمشيان على أقدامهما ويتركان الحمار.. فقال جحا مقولته المشهورة:

"**رضا النّاس غاية لا تدرك**" فصارت حكمة مأثورة، وفيها فوائد جمّة للطفل لا تخفى.

2- توظيف الشخصيّات الحيوانيّة:

وهو توظيف شمل كلّ قصائده حتّى تلك التي استخدم فيها شخصيّات بشريّة، مثل قصيدة (رضا النّاس..) إذ حضرت شخصيّة الحمار بقوّة، وهذا التوظيف له مبرّراته وأسبابه، فمن جهة هو يُنْبِئ عن ثقافة الشاعر (التراثيّة) العربيّة الأصيلة، ومن جهة أخرى إدراك الشاعر لأهميّة استخدام الحيوانات في القصّة، سواء كانت شعريّة أو نثريّة، وحتى عند الأمم الأخرى نجد هذا الاستخدام شائعا بشكل كبير، وقد بقي في العصر الحديث على النمط نفسه، وتوسّع إلى استخدام كلّ ما هو في الطبيعة من كائنات حيّة أو جامدة، حقيقية أو خياليّة وشمل الأفلام والمسرح والسينما وغيرها.

وكلّ الحيوانات التي استخدمها هي أيضا من الحيوانات المستخدمة في التراث العربي، مثل (الأسد، الذئب، الثعلب، القطّ، الكلب، الحصان، الخروف، العصفور..) وحتى بعض أسماء الحيوانات الغريبة مثل (الكركي)، وهو نوع من أنواع الطّيور يظهر في بعض قصص (كليلة

ودمنة)، وقلّ مَن يعرفه في العصر الحاضر، وربّما في ذلك بعض الإغراب، لكن من جانب آخر فيه محاولة لإثراء ثقافة القارئ، وإحياء لبعض الأسماء التي تكاد تندثر في لغتنا العربيّة.

3 – اللّغة والأسلوب:

أهمّ ما يميّز أي نصّ أدبي هو أسلوبه ولغته، فقد تحمل كثير من النّصوص الإبداعيّة أفكارا جيّدة، وربما نادرة ولكن إذا سِيقت في قالب هزيل وأسلوب ضعيف؛ زَهِدَ فيها القارئ وأعرض عنها، فالأسلوب أهمّ عنصرٍ جمالي في النّص الأدبي، وبالأخصّ في الشعر، لأنّ الشعر هو أعلى المراتب الإبداعيّة وأرقى فنونها في رأيي.

وأسلوب قصائد الشاعر عمر علواش مميّز بلا شك، لا يخطئ في جماليته القارئ لأوّل وهلة، وهذه الخاصيّة الجمالية تتشكّل من عناصر عديدة، يمكن أن نذكر منها الألفاظ، والمحسّنات البديعيّة، والصور الفنيّة، والتناص، الأسلوب الحكائي وغيرها. وفي فيما يلي نتحدّث عن كلّ ذلك بشيء من التفصيل والإطناب:

معجم الألفاظ:

عندما نلقي نظرة فاحصة على قاموس الألفاظ المستخدمة في قصائد الدّيوان؛ نجدها ألفاظا متينة فخمة قويّة يوازن فيها الشاعر بين استخدام القديم المعجميّ الذي لا يستخدم في اللّغة الحديثة إلا عند الأدباء الكبار، والكتّاب المشهورين، من مثل قوله: (واتت، سبابا، خَنَا، عزّت، دوحة، نَكْفِيكَ، الأَصْغَرَانِ، زَرَى، أَكْفِيكُمَا، الذِّمَارْ، أَعْيَاهُ، جَفَلَ، رَدِي)، وأيضا القاموس المعتاد البسيط الذي يستعمل في لغة الإعلام والمدرسة وفي الوسط الأسري المثقّف، والجميل أنّ بساطة الكلمات المفردة تجيء في تراكيب محكمة بليغة، لا تتاح لأي أحد من النّاس، إلا من أوتي حظا من موهبة متفرّدة، ولننظر في بعض الأمثلة تقرّب لنا الصورة:

يقول الشاعر من قصيدة (**الحصان والخروف**):

أَنَّ خَــرُوفًــا طَيِّــبَ السَّــرِيــرَه * * يَدُسُّ أَنْفَــهُ بِكُــلِّ سِيــرَه.

إذا قرأنا كلمات هذا البيت مفردة، نجدها بسيطة سهلة متاحة لكلّ إنسان (أَنَّ/خَــرُوفًــا/ طَيِّــبَ/ السَّــرِيــرَه/ يَدُسُّ/ أَنْفَــهُ / بِكُــلِّ/ سِيــرَه)، وهي من القاموس اللّفظي العصري، ولكن لو قرأناها في سياقها الشعري من القصيدة فإنّ الأمر يختلف تماما، فتصبح محكمة البناء بديعة الصّورة. ويصبح تأثيرها أكبر، وصورتها الجمالية أقوى وأبدع، وكأنّها أُخذت من نَفَس الكاتب وروحه، ويتمثل لنا الخروف كأنّه إنسان فضولي يتتبع شؤون النّاس فيما يعنيه وما لا يعنيه، وهي صورة أيضا شبه كاريكاتوريّة إذ بدلا أن يقول لنا الشاعر أنّ الخروف فضولي ويتسقط الأخبار والأحداث بشكل مبالغ فيه، جعل ذلك كلّه محصورا في أنفه (يَدُسُّ أَنْفَــهُ بِكُــلِّ سِيــرَه)، وكأنّ أنفه صار طويلا إلى الحدّ الذي يمكنه من دسّه في كلّ شيء، وأيضا السيرة شيء معنوي وليست ماديّا، فكيف يدسّ الأنف فيها..؟! كلّ ذلك يجعل المشهد (المجازي) مشهدا كاريكاتوريا.

ومثال ثانٍ:

يقول الشاعر من قصيدة (**الأسد والكلب**):

أَنَا أَرْضَى سَبَّهُ لِي عَلَنًا * * فَيَقُول النَّاسُ كَلْبٌ وَانْقَرَضْ

إِنَّمَا لاَ أَرْتَضِي أَنْ يَذْكُرُوا * * أَنَّ لَيْثًا قَاتَلَ الكَلْبَ وَعَضّ

هذان البيتان بلغا من حسن السّبك وجمال الصّياغة ما يغري القارئ بتكرارهما مرارا، وفيهما حكمة وعبرة رائعة (**لاَ أَرْتَضِي أَنْ يَذْكُرُوا أَنَّ لَيْثًا قَاتَلَ الكَلْبَ وَعَضّ**) ولكن لو فكّكنا تراكيبهما إلى كلمات مفردة لوجدناها كلمات عادية وبسيطة، من معتاد الألفاظ المستخدمة في القاموس اللّغوي الحديث (أَنَا / أَرْضَى / سَبَّهُ / لِي/ عَلَنًا / فَيَقُول / النَّاسُ / كَلْبٌ/ وَانْقَرَضْ...).

ليست الروعة في اختيار الألفاظ واصطفائها من غرائب القاموس، بل الجمال كلّ الجمال في حسن تنسيقها وتوليفها مع بعض لتنشئ لنا صورة جمالية غير معتادة ومشهدا فنيّا أخّاذا، صورة بارعة كأنها رسم فنّان تشكيلي بارع أفرغ فيها كلّ طاقته ومواهبه..!

1 - استهلال الحكواتي:

ما يميّز هذه القصص الشعريّة أيضا في ديوان عمر علواش؛ أسلوب الاستهلال الذي يجري عادة على لسان الحكواتية (القصاص) القدامى، أو الرواة بمصطلح علماء الحديث والأدب والتّاريخ، فنجده في قصّة (الأسد والكلب) يستهلّها بقوله:

"حَدَّثُوا فِيمَا مَضَى عَنْ أَسَدٍ"

وفي قصّة (**الحصان والخروف**) يبدأها قائلا: "قَدْ سَاقَ فِي الأَخْبَارِ مَنْ رَوَاهَا"

أمّا قصّة (**الثعلب والطبل**) فيقول في مطلعها:

"قَدْ قِيلَ إِنَّ ثَعْلَبًا مَكَّارَا"، ويبدأ قصّة (أُكِلتُ يوم أكل أخي) فيقول:"أتَانَا مِنَ الأَخْبَارِ يومًا عَجِيبَةٌ" أمّا قصيدة (**الدّيك العجيب**) فيستهلّها هكذا:"تَحَدَّثُوا فِيمَا مَضَى عَنْ دِيكِ"ومرّة أخرى يقول:"حَدَّثُوا أَنَّ جُحَا فِيمَا مَضَى" في قصيدة (**رضا النّاس**).

وهكذا باستمرار ، يميل الشاعر إلى طريقة المحدّثين والقصّاصين العرب القدامى في سرد الحكاية، وهي الطريقة نفسها التي اعتمدها أحمد شوقي في أغلب قصائده من ديوانه الموجّه للطّفل، وهو ديوان ملحق بالشوقيّات. وتتميّز هذه الطّريقة بالأصالة والتمسّك بالجذور في أسلوب العرب المتين. والميزة الأخرى أنّه يحاول التنويع في هذه الصّيغة فلا يثبت على هيئة واحدة فيملّها القارئ (الطّفل)، فيقول مرّة (حدّثوا) وأخرى (تحدّثوا) ومرّة ثالثة (أتانا من الأخبار) ورابعة (قد قيل).. وخامسة يغيّر فيها تغييرا كبيرا فيقول: (قَدْ سَاقَ فِي الأَخْبَارِ مَنْ رَوَاهَا).

ولا يخرج عن هذا الأسلوب إلا نادرا، من مثل قصيدته (الكركي والثعلب) إذ استهلها بقوله:

"بَيْنَمَا الثَّعْلَبُ يَزْهُو فَرَحًا.."

ولسنا في حاجة إلى أن نذكر أنّ هذا الأسلوب الاستهلالي نجح طول قرون من الزّمن في جذب القرّاء والمستمعين وإغرائهم بالنّص وقراءته، وهو للأطفال أكثر جذبا وتشويقا، ولقد ظهرت أساليب افتتاحيّة كثيرة تمتلك الخصائص نفسها في الجذب والإغراء بالقراءة، مثل أن يُقذَف الكاتب بالقارئ في الحدث مباشرة، بواسطة استخدام أفعال الحركة السّريعة أو أفعال التهويل والمبالغة، دون استخدام عبارات (حكوا أو رووا وقالوا..)، وهي لها قدرتها الكبيرة في كسب القارئ، ولكن رغم ذلك ما يزال هذا الأسلوب الحكائي العتيد يطغى بسحره على قلب القارئ.

2 – **صياغة العناوين:**

العناوين هي بوابة النّص بلا شك والمدخل إليه، ويمكن أن يصبر القارئ الراشد على عنوان ضعيف الصياغة قليل الإغراء، حتى يطّلع على النّص ويعرف قيمته الحقيقيّة، لكنّ الطّفل الصّغير بفطرته وتلقائيّته لا يمتلك ذلك الصّبر أو التأني، هو مباشرة يحكم على النّص من عنوانه، كما يقال في غير هذا المعنى (يعرف الجواب (الرسالة) من عنوانه)، لكنّه يوافقه.

والأستاذ عمر علواش، انطلاقا من خلفيّته المهنيّة في ميدان التربية، وتمرّسه بأساليبها، علم أنّ أسماء الحيوانات في عناوين قصائده أحد عناصر الجذب بلا خلاف، ثمّ إنّه راعى جانبا آخر مهمّا كثيرا وهو الاختصار في العناوين، فأغلبها يتكوّن من كلمتين اثنتين (**الأسد والكلب**) و(**الحصان والخروف**) و(**الثعلب والطبل**) و(**العصفور والفخّ**).

ورغم ذلك فإنّ الشاعر أحيانا يخرج عن هذه القاعدة ويلجأ إلى كتابة عنوان طويل إلى حدّ ما، لرأي ارتآه أو اختاره، ومن ذلك في قصيدة (**حِمَارٌ فِي جِلْدِ أَسَد**)، فدلالة العنوان لا تتمّ

إلا بهذه الكلمات الأربع، ولو قال (الحمار والأسد) أو (الحمار الأسد) لما أعطى المعنى المقصود والذي تبيّنه تفصيل أحداث القصّة.

وأحيانا يفعل العكس فيختصر العنوان الطويل، إذا رأى أنّ الاختصار يفي بالغرض، في مثل عنوان (رضا النّاس..)، وهو في الأصل (رضا النّاس غاية لا تدرك) في القصّة المعروفة عن جحا والتي ذكرناها آنفا، ولأنّ الاختصار هنا لا يخرج عن سياق معنى القصّة ودلالتها، ويفي بالغرض فقد اكتفى به الشاعر، وهذا من حسن التّصرّف والقدرة على الاقتباس الذّكي، فلا يأخذ المبدع كلّ ما يعنّ له من المتن التراثي بقضّه وقضيضه، ولا يغربل منه شيئا.

3 – التناص:

وهو تقنيّة جمالية تقوّي من أفكار النّص وتضفي عليها جمالا خاصّا، ربّما لا يدركها الطّفل الصّغير بعقله، ولكن يستشف جمالها ودلالاتها بشكل غير مباشر، وقد يقول هذا المعنى قرأته أو قرأت مثله من قبل في قصّة أخرى أو قصيدة مشابهة.

وهناك تناص عام في اقتباس أفكار قصائده القصصيّة من التراث أو الحكايات الشعبيّة، وهناك تناص خاص في أخذ بعض الأفكار أو جزء من منها وتكييفها وفقا للمعاني التي يريد الشاعر تبليغها للقارئ (الطّفل)، ومن أمثلة التناص الخاص نذكر هذه النماذج:

في قصيدة (حمار في جلد أسد)، نجد نموذجين من التناص، الأوّل لعبارة شائعة في كلام العرب وهي قولهم (ما لذّ وطاب)، وتستعمل في استحسان الطعام وتنوعّه وكثرته وقد قال الشاعر في ذلك من البيت الخامس:

يَخْتَارُ مَا لَذَّ لَهُ وَطَابَا * * وَمَنْ دَعَاهُ صَاغِرًا أجَابَا

وفي هذا التناص إثراء للنّص وشحن لقوّته البلاغية، وقال في البيت الحادي عشر:

مَا المَرْءُ إلاَّ القَلْبُ وَالِّلسَانُ * * الأَصْغَرَانِ لِلْفَتَى عُنْوَانُ.

وفيه تناص مع الحكمة المشهورة بين العرب (المرء بأصغريه قلبه ولسانه)، وقد استخدم زهير بن أبي سلمى، الشاعر الجاهلي الحكيم هذا المعنى في معلّقته عندما قال:

وَكَائِنٍ تَرَى مِنْ صَامِتٍ لَكَ مُعْجِبٍ... زِيَادَتُهُ أَوْ نَقْصُهُ فِي التَكَلُّمِ

لِسَانُ الْفَتَى نِصْفٌ وَنِصْفٌ فُؤَادُهُ... فَلَمْ يَبْقَ إِلاَّ صُورَةُ اللَّحْمِ وَالدَّمِ

وهو على كلّ حال معنى شائع وحكمة سائرة في كلام العرب، ومن عيون البلاغة عندهم، وتوظيفها في شعر الأطفال مفيد لهم من النّاحية اللّغوية التعليميّة، إذ يثرون بها لغتهم ويدعمون معجمهم اللّفظي، ومن ناحية أخرى فيها قيمة تربويّة عالية، يحسن أن ينشؤوا عليها وتتشرّبها قلوبهم وتزدان بها أخلاقهم.

ومن التناصّ أيضا تضمينه للحكمة الشهيرة (إرضاء الناس غاية لا تدرك) في عنوان القصيدة وفي آخر بيت منها، ولكن بصياغة أخرى لا تقلّ عنها جمالا:

كُلُّ مَنْ حَاوَلَ إِرْضَاءَ الوَرَى * * عَادَ مِنْ بَعْدِ اجْتِهَادٍ لِلْوَرَا

4 – المحسّنات البديعيّة:

مِلح الجمال في النّص الأدبي هي المحسّنات البديعيّة، وبغيرها يكون النّص كأنّه وردة بلا أكمام، والشاعر الذي لا يلتفت إلى المحسّنات البديعة ولا يعيرها اهتماما، يأتي شعره جافا يابسا، كحَشَف التمر ودقله، وفي هذا الدّيوان نجد ذلك الثراء المبهر في المحسّنات البديعيّة، حتى كأنّه يغرفها من بحر أو سحّت بها سماء قريحته سحّا.

الجناس: ولقد ازدانت به بعض القصائد حتى صار لها حلّة ضافية تجلّلها من مبدئها إلى منتهاها، وهو غالبا جناس ناقص، إذ الجناس التام صعب نادر، ولا يكون منه على البديهة إلا الشيء اليسير، ومن ذلك قوله في قصيدة (**القطّة الوفيّة**):

(قطّة، بطّة / المرحا، منشرحا / عاما، الآلاما/ البطّة، غبطه).

وفي قصيدة (الثعلب والطّبل)، نجد هذه الأمثلة (الغذاء، الأرجاء/ عظيمة، مستقيمة / بشرايا، عشايا/ عضّا، أرضا).

وفي قصيدة (حمار في جلد أسد) نجد هذه الأمثلة أيضا (لِبَاسَا، مَقَاسَا/ طابا، أجابا / النّاس، ناسِ/ بالعصا، عصا..).

التّصريع: وهو شائع كثيرا في الشعر الموجّه للأطفال، لأنّه يساعد على التحرّر من القافية الواحدة، ومن أمثلته قول الشاعر في قصيدة (الحصان والخروف):

قَدْ سَاقَ فِي الأَخْبَارِ مَنْ رَواَهَا * * نَصِيحَةً عَزَّتْ فَكُنْ فَتَاهَا

أَنَّ خَــرُوفًــا طَيِّــبَ السَّــرِيــرَه * * يَدُسُّ أَنْفَــهُ بِكُــلِّ سِيـرَه

كَانَ الحِصَانُ جَارَهُ المـُخْتَارَا * * وَالعُشْبُ يَكْسُو الأَرْضَ حَيْثُ سَارَا

والتصريع هنا هو في آخر الكلمات بين شطري البيت الواحد، وهي (رواها، فتاها / السّريرة، سيره/ المختارا، سارا)، فبدلا ما يلتزم الشاعر بحرف الرّوي نفسه في كلّ بيت، نوّع في حروف الرّوي، وتكرار حرف الرّوي بين شطري البيت الواحد فقط مثل (رواها، فتاها). وفي هذا الأسلوب نوع من التنويع الموسيقي، وإطلاق نفس الشاعر في صياغة المعاني المختلفة، كما أنّه يعطي خيارات أكبر في اختيار اللّحن المناسب أثناء العمل على إنشاد القصيدة.

ونجد الشيء نفسه في قصيدة (**قصيدة الثَّعْلَبُ وَالطَّبْل**):

قَدْ قِيلَ إِنَّ ثَعْلَبًا مَكَّارَا * * قَدْ ذَاقَ طَعْمَ الجُوعِ حَتَّى خَارَا

فَجَدَّ فِي البَحْثِ عَنِ الغِذَاءِ * * فِي الغَابَةِ الفسِيحَةِ الأَرْجَاءِ

حَتَّى رَأَتْ عَيْنَاهُ بَعْدَ الكَدِّ * * طَبْلاً كَبِيرًا فاَقَ كُلَّ حَدِّ

الطباق: وهو أيضا من المحسّنات البديعيّة التي تقويّ المعاني وتزيدها جمالا، لكنّ الكاتب استعملها بمقدار محدّد في ديوانه، ومن أمثلتها قوله في قصيدة (القِطَّة الوَفِيّة): (صُبْحَ مَسَا).(الكُرْكِيُّ وَالثَّعْلَبُ): (بِلَيْلٍ أَوْ نَهَارْ) وأيضا في قصيدة: رِضَا الناس: (بَدْوًا وَحَضَرْ).

كلّ هذه العناصر الفنيّة وغيرها من مثل (الحوار والتكرار والمشاهد الفنيّة التصويريّة الخاطفة)؛ كلّها تزيد الأسلوب جمالا وبلاغة وحسن تصوير، وتجعل من البيت الشعري الواحد بمثابة لوحة جميلة تخلب الألباب وتخطف الأبصار، وتبلّغ رسالة الشاعر من أيسر السّبل، ويتلقّاها الطّفل بكلّ حواسّه عذبة ريّانة يصدح بها لسانه وتشعّ في وجدانه.

قراءة في ديوان (أناشيد وأغاني الأطفال)

ـ للشاعر محمّد الأخضر السّائحي ـ

آه لو كنت أطير * * مثل عصفور صغيرْ

كنتُ في كلّ صباح * *باسطا ذاك الجناحْ ـــــــ محمد الأخضر السائحي من أنشودة (الطّفل العصفور).

ليس من خطّتي وغرضي في سلسلة القراءات التي أقوم بها في (أدب الأطفال)؛ أن أتحدّث عن الكتّاب المتوفّين، الذين صاروا يُعَدّون في سجل التاريخ الأدبي وانقطع نتاجهم وانتهى عطاؤهم بوفاتهم، وهم في الغالب أخذوا حظّهم من الدّراسة والبحث. وكلّ الدّراسات التي كتبتها حتى الآن؛ وهي أكثر من عشرين دراسة ، سلّطت فيها الضوء على كتاب معاصرين أحياء، وأغلبهم يمكن التواصل معهم واستفسارهم عن بعض المواطن والأفكار في كتاباتهم ، لكن هذه المرّة سأخالف القاعدة وابتعد عن النّهج الذي وضعته لنفسي، والسّبب في ذلك؛ شوق عارم إلى الطفولة الأولى، وحبّ غامر لشخصيّة فذّة لطالما صنعت فرحة الأطفال بشعرها..!

إنّه الشاعر المخضرم محمّد الأخضر السّائحي[1]، صاحب ديوان (أناشيد وأغاني الأطفال)، وقد ضمّ هذا الديّوان بين دفتيه خمس وخمسين (55) قصيدة، وطُبع ضمن مطبوعات (المكتبة الخضراء)، من القطع المتوسّط في أربع وستّين (64) صفحة ، وكان طبع في طبعته

[1] – محمّد الأخضر السّائحي، المعروف بالسّائحي الكبير؛ شاعر جزائري من مواليد 1918م بتقرت، (الوادي) الجزائر، حفظ القرآن الكريم وهو في التاسعة من عمره، سافر إلى تونس والتحق بالزيتونة، ثمّ عاد الجزائر بعد مساهمته في نشاط سياسي ضدّ المحتل الفرنسي، ودخل السّجن لفترة. أستاذ وإعلامي ، اشتغل بالإذاعة الوطنيّة لعدّة سنوات وقدّم برامج مشهورة منها برنامج (ألوان (وتميّز بصوته المتهدّج الذي يجتذب المستمعين، وترك عدّة دواوين شعريّة منها: (همسات وصرخات/ جمر ورماد / أناشيد وأغاني الأطفال). توفي عام 2005 م

الأولى في حياة الشاعر عام 1983 م، طبع دار الكتب، وكان عنوانه الأوّل (ديوان الأطفال).

هذه القصائد تَربينا عليها في صغرنا وترنمنا بألحانها في مدارسنا في فترة السبعينيات والثمانينيات، وكان كثير منها مبرمجا في المناهج الدّراسية في المرحلة الابتدائيّة والأساسيّة، وقد تميّزت بعذوبة ألفاظها وسموّ أفكارها، وجمال صياغتها وخفّة ألحانها.

ومن منّا لا يذكر قصيدة (الأصابع) أو(هيّا نلعب) و(الشرطي) و(مدرستي الحبيبة) و(حديقتي آن الأوان)، لقد كانت خبزنا اليومي ونغم الطفولة الذي تصدح به المدارس في كلّ مكان، ولذا حقّ لي أن أقف عندها متمليّا وأَعْبُرَ خلالها مستذكرا رحلة الماضي البعيد، الذي تصرّمت منه خمسون وزيادة.

نأخذ نماذج مختارة من ديوانه (أناشيد وأغاني الأطفال) ونحاول أن نكتشف من خلالها أهم الموضوعات التي عالجها ، واكتشاف خصائص أسلوبها وبنائها الفنّي ، ولتكن البداية بألطف وأجمل قصيدة في الديّوان في نظري:

كتب كثيرون عن الشاعر محمّد الأخضر السّائحي وأوفوا شعره دراسة وبحثا، ولكن كلّ ذلك لا يغلق باب النّظر في شعره أو يجعلنا نضعه في الأرشيف ونولّيه ظهورنا، فهو لا يمكن أن يلقى منّا ذلك الجزاء، فذلك جحود ونكران ، وعقوق وعصيان لأرث أثيل ومجد أدبي أصيل.

أنشودة (الأصابع):

هذه القصيدة تربّت عليها أجيال متعاقبة ، وسرعان ما يحفظها الطّفل وتتلقّفها الأذن ، لأنّها مقطوعة من أربعة أبيات، فيها خفّة وعذوبة يقول فيها الشاعر:

في راحتي النظيفـة * * أصابع لطيفـــــة

إسم الصغير الخنصر * * ثمّ يليه البنصـر

وأعرف الكتابـــة * * بالوسطى والسبابـة

والأكبر الإبهـــام و هو لها التمـــــام

ورغم عدد أبياتها القليل إلا أنّها حوت جملة من القيم التربويّة والمعرفيّة الهامّة، يمكن أن نذكر منها:

الحثّ على النّظافة بطريقة غير مباشرة، فهو بدلا من أن يقول للطّفل نظّف يديك أو اهتمّ بنظافة جسمك، يجعله هو من يقول أنّ راحته نظيفة، ويجعله يهتمّ بالكتابة وقيمتها في حياته، حين يقول له: (وأعرف الكتابة * * بالوسطى والسبابة)، ويزوّده ببعض المعارف الهامة ومنها الثروة اللُّغويّة ، حيث يكتشف أسماء الأصابع التي لا يكاد يُعرف منها في الدّراجة سوى أصبع (السّبابة)، فيُمكّنه الشاعر من معرفة جميع أسماء أصابع اليد (الخنصر ، البنصر ، الوسطى ، السّبابة / الإبهام) ، وهذه بالنّسبة للطفل لاسيما في المرحلة الأولى من التعليم تعتبر ثروة لغويّة هامّة ، كما يعطيه اسما آخر لكفّ اليد يعتبر جديدا بالنّسبة إليه وهو لفظ (راحتي).

والمقطوعة جميلة جدا وسهلة التلحين، ويحلو نطقها في الفم والترنّم بها من قبل الأطفال، وحتى إنشادها من طرف الآباء والأمهات والمربين في الروضات ودور الحضانة والطور الأوّل من التعليم.

أنشودة (النّظافة):

النظافة من الأمور الأساسيّة التي يحرص المربّون على ترسيخها في نفوس الأطفال، والحظ المباشر عليها غالبا ما يكون ثقيلا على القلب، مرهق للنّفس إذ يعتبر عملا يوميّا وله مواعيد محدّدة، وإذا تغافل عنه المربّي تركه الطّفل، وصوغه في قصيدة تُحفَظ وتنشد يسهّل المهمّة ويحفز الطّفل على تنفيذ ما جاء فيها من نصائح وتوجيهات، يقول الشاعر في هذه المقطوعة المؤلّفة من خمسة أبيات:

نظافة الأبـــدان * * فرض على الإنسان

لأنّها تقيـــــة * * من كلّ ما يؤذيـه

فالوجـه واليـدان * * والرأس والرّجـلان

تغسل كلّ يـــوم * * قبل وبعد النـــوم

والولد اللّطيـــف * * على المدى نظيـف

يخبر الشاعر الطّفلَ أنّ النّظافة فرض عليه، وليس شيئا زائدا يفعله تطوّعا وقد يتركه إذا شاء، ويربط هذه النظافة بالوقاية من كلّ أذى ، كما يجعلها متعلّقة بالأعضاء التي تغسل عادة في الوضوء، وهذا تمهيد لتعليمه الوضوء ومن ثمّ الصّلاة، ولذلك كانت الأنشودة التي تليها مباشرة في الدّيوان حول الصّلاة.

وفي القصيدة زاد لغويّ يتلقفه الطّفل ويدعم رصيده وينمّيه، ومن تلك الكلمات التي أحسبها غير معتادة لدى الطّفل في المراحل الأولى كلمات (تقيه، يؤذيه، المدى)، وهي كلمات قليلة، إلا أنّها تعتبر جرعات لغويّة خفيفة ضرورية للطّفل في هذه المرحلة ، لاسيما في الفترة التي ألّف فيها هذا الديّوان أواخر السّبعينيات بداية الثمانينيات (في طبعته الأولى)، لأنّ مثل هذه الألفاظ قد تعتبر معتادة ومألوفة لدى الطّفل الذي يشاهد يوميّا في مختلف القنوات الفضائيّة، وعلى برامج الأنترنت كثيرا من البرامج والرسوم المتحرّكة التي رفعت من رصيده اللغوي، ونقول ذلك عن تجربة ومعاينة ، وممارسة للتعليم أكثر من ثلاثين سنة.

أنشودة (الطّفل والعصفور)

هذه القصيدة أيضا من أروع ما قرأت وسمعت في شعر الأطفال ، وهي ست أبيات كأنّها سمفونيّة خالدة:

آه لو كنت أطير * * مثل عصفور صغيرْ

كنتُ في كلّ صباح * * باسطا ذاك الجناحْ

حائما فوق الغصون * * منشدا أحلى اللّحونْ

هائما حول الشّجر * * طائرا بين الزّهرْ

آه لو كنت هزار * * منشدا طول النّهارْ

قلت للرّوض أنا * * فيك أدركت المنى

الطيران.. حلم الإنسان منذ القديم الذي حقّقه العلم الحديث، لكنّه ما يزال محدودا ومقتصرا على بعض النّاس وبواسطة الآلات فقط، لكن الطيران الذّاتي ما زال أمنية صعبة المنال، (آه لو كنت أطير)، يتحدّث الشاعر بلسان الطّفل ولغته، ويعبّر عن أحلامه وأمنياته ، هذا الطّفل يحبّ العصافير ويتمنى أن يكون مثلَها..!

والطّفل كذلك مفتون بالطبيعة وكلّ ما فيها من روض وزهر ونهر وطائر مغرّد وهزار شادٍ.. وعرف الشاعر أهميّة كلّ تلك العناصر وتأثيرها في نفس الطّفل فعزف على ألحانها وصاغ من معانيها مغاني بديعة تُطرب الطّفل وتعجبه، في سلاسة وخفّة وألفاظ منتقاة بعناية.

إلا أنّ البيت الأخير في الأنشودة بدا غير منسجم مع بقية الأبيات ، فرويّ (الرّاء) الساكنة الذي يسبقه حرف مدّ سكان (الصّغيرْ ، الجناحُ ، النهارْ (..تغيّر فجأة في آخر بيت عند قوله: (المنى) أثر على انسجام القصيدة وسلاستها شيئا يسيرا. كما اعتمد كذلك في (التصريع) عندما جاءت أشطر الأبيات منسجمة هكذا (أطير / صغير)، (صباح / الجناح)، (الغصون / اللّحون)، (الشّجرْ/ الزّهرْ)، (هزار/ النّهار)، كلّه نغم واحد ، ثمّ أعقبها بـ (أنا / المنى)، فكان الصوت خافتا ينزل عمّا سبقه درجة في النغم..!

أنشودة (الدّمية):

لم ينس الشاعر الفتاة وحظّها من القصيد، فجاءت أنشودة (الدّمية) لها وعلى لسانها:
ابقَي هنا قريبهْ * * يا دُميتي الحبيبهْ

جالسة بقربي * * واقفة بجنبي

بثوبك الأنيق * * وقدّك الرّشيق

فأنت كالمرآة * * عاكسة صفاتي

كلّ ما تفكّر فيه الفتاة حين تلعب بدميتها أو تتخيّله؛ جسّده الشاعر على لسانها ، فهي دمية قريبة منها، أي لصيقة بها لا تكاد تفارقها، وذلك لأنّها حبيبة لقلبها ترى فيها نفسها وصفاتها، تلبس ثوبا أنيقا، تتمنى الفتاة أن تلبسه، وتملك قدّا رشيقا تحلم كلّ فتاة أن يكون لها قدّ مثله.

وصاحبتها تقول لها صراحة:

فأنت كالمرآة * * عاكسة صفاتي

فهي ترى فيها كلّ صفاتها، ومن ثمّ تعتبرها مثل أختها وأحيانا مثل ابنتها، وتعاملها كما تعامل الأم ابنتها الصّغيرة التي تحتاج إلى عناية فائقة:

ناجيتها كأختي * * وتارة كبنتي

ألبستها القشيبا * * والفاتنَ العجيبا

وسّدتها ذراعي * * كالطّفل في الرّضاع

يا دميتي المهذّبهْ * * يا لعبتي المحبّبهْ

هديةً من أمّي * * عن طاعتي وفهمِ

والأجمل في كلّ ذلك أنّ هذه الدّمية هديّةٌ من أمّها، وهذا ما يزيد في ارتباطها بها ومحبّتها لها، أنشودة تشبه القصّة، وفيها كلّ ما يهم الفتاة الصّغيرة ويغريها في دمية تلعب بها..!

كتب السّائحي كثيرا من القصائد على لسان الطّفل، وأغلبها يكون الطّفل فيها هو المحور الأساسي أو أحد أبطالها الرّئيسيين، ومن تلك القصائد؛ القصيدة السّابقة (الطّفل والعصفور) وقصيدة (الطّفل والنّبع) و (الطّفل والصّدى) و(الطّفل النّائم) وغيرها، والرّائع في

بعض هذه القصائد أنّه جعلها على شكل نصّ مسرحي أو مشهد تمثيلي قصير، يمكن أن يمثّل ويؤدّى في المدارس والنوادي التربويّة والثقافيّة، ونأخذ مثالا من تلك القصائد، قصيدة:

(والطّفل والصّدى):

في هذه القصيدة ثلاثة عشر بيتا، وفيها شخصيتان تتحاوران هما؛ الطّفل والصّدى، والمميّز فيها المثير؛ هو جعل الصّدى (كائنا حيّا) يردّ على الطّفل ويحاوره، وظاهر الصّدى من الأمور التي تلفت انتباه الطّفل في طفولته المبكرة، ويحاول فهمها واكتشاف سرّها، وربّما عسُر عليه ذلك إلى أن يجلس على مقاعد الدّراسة، ويفهم حقيقة (الصوت والصّدى)، وهنا نجد الشاعر يشرح له هذه الظاهرة بكلّ يسر وبساطة، ويقدّم له من خلالها قيما تربويّة عالية، يقول الشاعر محمّد الأخضر السّائحي في مطلع هذه القصيدة:

من ذا الذي يعيد * * نداي من جديد

نفس النداء * * نفس الأداء

يعيد في الختام * * ما قلت من كلام

هذه التساؤلات يعبّر بها الشاعر عن حقيقة طالما ردّدها الطّفل وهو صغير، وشغل بها باله وبال أبويه وكلّ من يحيط به، وينتظر الجواب الشافي، ويأتي الجواب مغنّىً من الشاعر بلسان الصّدى نفسه:

اسمع أنا صداكْ * * خطاي من خطاك

أنا الخيال * * أنا الظلال

ودائما وراك

حوار طريف لطيف في نغمات شجيّة وأصوات عذبة ومقاطعة قصيرة سهلة الأداء، ثم يكون الختام بقيمة تربويّة ثمينة:

الصّدى:

إن صحت بالقبيح * * بمثله أصيح

أو بالكمال * * قلتُ المثال

فاحذر من القبيح

ويلجأ أحيانا الشاعر إلى الموعظة المباشرة حين يكون الأمر متعلّقا بالتربية والتوجيه، ولا عيب في ذلك ولا مغمزة، فلكلّ مقام مقال، وهذه قصائد تربويّة بالدّرجة الأولى، وإن ضعف البناء الفنّي شيئا يسيرا، فالكمال لله تعالى، ولكن الأجود أن يجتمع الأمران، حسن الموعظة وقوّة البناء الفنّي وجماله.

وبالأسلوب نفسه والطريقة ذاتها نجد قصيدة (لغة السّاعة)، والتي يسوقها الشاعر في نغم جميل إذ يقول:

تك، تك ، هذي * * لغة السّاعة

فاسمع ، وافهم * * معنى الطاعة

والسّاعة من ضمن الأشياء الكثيرة التي تشدّ انتباه الطّفل، وينظر إليها بفضول ويحب أن يقتني واحدة إن كانت ساعة يد، ويلحّ في طلبها من والديه، وإذا كانت ساعة حائطيّة تشدّه دقّاتها، وتعجبه حركة عقاربها وتنقلها من رقم إلى آخر، والشاعر يستغلّ الفرصة ويقدّم من خلال الحديث عنها توجيها ونصيحة مفيدة للطّفل:

فاسمع ، وافهم * * معنى الطاعة

لابدّ أن يكون الطّفل منظما ومنضبطا مطيعا في سلوكه واجتهاده مثل انضباط السّاعة، وأن يجري ويسعى في الحياة مثل جريان عقاربها دون كلل أو ملل، ولكي يعطي الشاعر للقصيدة (نكهة خاصّة)، وطابعا مميّزا يجعل من دقّات السّاعة (تك، تك) لازمةً تتكرّر في أبيات القصيدة ستّ مرّات..!

وفي قصيدة (الطّفل النّائم): يعالج الشاعر ظاهرة أخرى ملازمة للأطفال في الصّغر، لاسيما أثناء وقت الدّراسة، وهي صعوبة النهوض من الفراش، ويبني الشاعر حوارا بين الأمّ وابنها في عشرة أبيات عذبة النّغم لطيفة الألفاظ، يبدأها بلسان الأمّ قائلا:

الأمّ:

استيقظ الرّفاق * * وكلّهم أفاقوا

وأنت يا سمير * * يشدّك السّرير

قم مثلهم تهيّا * * لم يبق وقتٌ فهيّا !

وطبعا الطّفل الصّغير يحلو له النّوم في مثل هذه الأوقات، ويشدّه الفراش شدّا، خصوصا أيّام الشتاء الباردة، وعندما تلحّ عليه الأم في النهوض؛ يكون جوابه:

لا ! لا أقوم الآن * * فلم أزل نعسان

ما زقزق العصفور * * ما غنّت الطّيور

ما جاء ضوء الشمس * * ما حان وقت الدّرس

والشاعر لا يفوّت الفرصة، وكعادته دائما يختم قصيدته بنصيحة ذهبيّة، في شكل حكمة مصاغة بعناية كبيرة:

فالرأي بالتدبير * * والفوز في التبكير

ويدبّج الشاعر قصائد أخرى في مثل سبائك الذّهب، عن الدّمية والدّراجة، والسيّارة والشرطي وغيرها، وإذا وقفنا أمام إحدى القصائد المشهورة ، وهي قصيدة (الشرطي)، التي اشتهرت بشكل كبير في مراحل التعليم الأولى (في الجزائر) وردّدتها عدّة أجيال من المتعلمين، نجد تلك العذوبة، وذلك الأسلوب السّلس الآسر في لغة السّائحي، رحمه الله تعالى. يقول في تلك القصيدة:

في وسط الميدان * * يقف في أمان

يخفّف الزحام * * ويحفظ النّظام

يأمر بالوقوف * * من شاء في الصّفوف

في فمه صفّارة * * يعطي بها الإشارة

الفرد والجميع * * لأمره مطيع

لأنّه صديق * * تُحمى به الطّريق

هذه القصيدة تبيّن دور شرطي المرور في تنظيم الطريق، والحفاظ على سلامة السيّر وأمن العابرين مشاة وراكبين، وهي ثقافة راقية جدا نحن أحوج من نكون إليها، بعدما سادت ثقافة الشنآن بين (الشرطي) وأصحاب السيّارات، حتى صارت كلمة (شرطي) تمثل معنى مخيفا في ذهن الطّفل، وهذا خطأ كبير لابدّ من تصحيحه ، ولذلك يختم الشاعر قصيدته بقوله:

لأنّه صديق * * تُحمى به الطّريق

وإذا كان محمّد العابد الجلالي (1967/1890 م) هول أوّل صاحب ديوان شعري (على قلّة عدد أناشيده) مطبوع في الجزائر، وبذلك قد وضع اللّبنات الأولى لأناشيد الأطفال في الجزائر ، فإنّ محمّد الأخضر السّائحي يُعدّ المؤسس الأوّل في العصر الحديث لأناشيد الأطفال بالجزائر، وخمس وخمسون أنشودة، في أغلبها من الأناشيد الرّائعة التي غنّاها التلاميذ وترنّموا بها في المدارس وروضات الأطفال؛ ليس بالشيء الهيّن أو البسيط، بل عمل جبّار، وإنجاز عظيم، جعل السّائحي يأخذ مرتبة الصّدارة في هذا المجال.

ويبقى ديوان (أناشيد وأغاني الأطفال) وثيقة أدبيّة وفنيّة، قيّمة تحتاج إلى مزيد من البحث والدّرس من مختلف جوانبها.

قراءة في ديوان (مملكة الأمراء الصّغار)

للشاعر نبيل شريط

تشخيص أوّلي:

الطبيب الشاعر أو الشاعر الطّبيب.. هي إحدى مفارقات الأدب والإبداع، ولها في التاريخ الأدبي نماذج كثيرة وأمثلة تشع سناء وجمالا، ولا نعدو الحقيقة قيد أنملة إذا قلنا أنّ الدّكتور الأديب نبيل شريط المختصّ في الأمراض الصّدريّة؛ أحد هذه النماذج المتلألئة في سماء الإبداع..!

وتعجب أيّما عجب: كيف يجمع الطبيب بين العقاقير والأدوية ونوتات الشعر العذبة الرّقيقة..؟! ولكن سرعان ما يزول ذلك العجب والاستغراب إذا ما عرفت خلفيّة هذه التركيبة العجيبة في شخصيّة الدّكتور نبيل شريّط، فهو معرق في الأدب والإبداع ورثه كابرا عن كابر وتلقف مشعله من فطحل ارتكن إلى فطحل مثله.

فهو من مواليد زريبة الوادي ولاية بسكرة بتاريخ 26 / نوفمبر 1977، وزريبة الوادي مدينة معروفة بشعرائها وأدبائها الكبار الذين برّزوا في هذا المجال وطاولوا فيه الأشاوس الكبار، ويكفي أنّها مدينة مولود الزريبي وعمر البسكري، والشيخ بادي مكّي، وغيرهم كثيرون، ووالد شاعرنا هو الدّكتور عبد القادر شريّط المختصّ في الأدب المغربي، له كثير من الدواوين الشعريّة المخطوطة، وهو معروف وله مكانة بين شعراء الجزائر الأفذاذ، له قصيدة رائعة قال في مطلعها:

أهلا بقافلة حلّتْ بِوادِينَا...تسْتنْطِقُ الرّملَ إيضَاحًا وتبْيينًا

كما أنّ جدّه مصطفى شريّط إمام وفقيه وشاعر كبير أيضا من أنداد محمّد العيد آل خليفة، فلا غرابة إذاً ولا عجب، ومن شابه أباه فما ظلم، فكيف إذا شابه أباه وجدّه ونهج نهجهما..؟!

ديوان للأطفال:

للدّكتور نبيل شريّط كثير من الكتب المخطوطة في مجال اختصاصه العلمي، ودواوين شعريّة مخطوطة نتمنى أن يوفق إلى طبعها، وقد شاء القدر أن يوفق إلى طبع أوّل دواوينه الشعريّة ويكون موجّها للأطفال، تحت عنوان (**مملكة الأمراء الصغار**)، وقد صدر الدّيوان عن دار علي بن زيد في طبعة جميلة وجذّابة عام 2020 م من القطع الكبير، وضمّ بين جناحيه ثماني قصائد شعريّة عموديّة، بعناوين متنوّعة هي:

- في ضيافة بسكرة
- وصلة في حبّ الوطن
- على خطى المصطفى
- فلّة والأقزام السّبعة
- الدّيك المغرور
- الحسّون الجميل
- الصّغيرة.. بائعة عود الثقاب
- الأرنب العنيد

عنوان كالبلسم:

من العنوان تتجلّى لنا اللمسات المرهفة للشاعر الطبيب (**مملكة الأمراء الصغار**)، كلمات ثلاث من قاموس الطفل الأثير، إذا قلت (**مملكة**) اندهش الطفل وتشوّف لمعرفة فخامة الملك وعجائب الممالك، وإذا قلت (**الأمراء**) عززت هذا الشعور بوجود عوالم السّلطة والتملك وتحقيق كلّ الأمنيّات، ثم تجيء كلمة (**الصّغار**)، لتجعل الحلم الأرجواني بين يدي الأطفال يمرح ويلعب ويقول:

(تذوّقوا كلوا، العبوا.. فكلّ هذا لكم)

قصائد الدّيوان:

جاءت قصائد الدّيوان في موضوعات شعريّة متنوّعة، لها صلّة بالطّفل وعالم الطّفولة، فالقصيدة الأولى (في ضيافة بسكرة) تتغنى بأرض بسكرة أرض المنشإ وموطن الميلاد

والأجداد، وعراقة التاريخ وقلعة العلم والعلماء، والقصيدة في عشرة أبيات يذكر فيها حبّه لهذه الولاية وفخره بها، ويقول في مطلعها:

مرحبا في بسكرة

أرض خير مبهرة

جود تمر ذوقها

حلوة كالسّكرة

ويمكن أن نعدّ هذه القصيدة تغنيا بالوطن الأصغر، بينما تغنّى الشاعر بالوطن الكبير في قصيدة أخرى بعنوان **(وصلة في حبّ الجزائر)**، ومطلعها:

في بلاد العرب ثائر... موطن ربي الجزائر

ويتحدّث فيها عن مفاخر الجزائر وأمجاد رجالها وتضحيّات أبطالها، أمثال شهداء الثورة وابن باديس رائد نهضتها والأمير عبد القادر الجزائري قائد المقاومة ضدّ المحتلّ البغيض ومؤسس دولتها الحديثة، إذ يقول:

من كفاح وافتخار ... يشهد المليون شاعر

نجمة زانت هلالا ...لونها رمز المفاخر

أبيض يلقى دلالا ...أخضر في المجد غائر

حرف باديس تغنّى ...كاتبا سطر البصائر

ينشر الأخلاق علما ... واعظا كلّ الضّمائر

تحت دردار وظلّ ... في ربى أمّ العساكر

يعتلي العرش أمير ... المكنّى عبد القادر

وفيها تخليد لتلك الشجرة العظيمة، شجرة الدّردار التي تمّ تحتها مبايعة الأمير عبد القادر بن محي الدّين بالإمارة وتفويضه لقيادة المقاومة. ثمّ يتحدّث عن ملحمة أوّل نوفمبر التي حقق الشعب بفضلها الاستقلال، واسترجعت أرض الوطن:

قد مضى الأعداء قهرا ... واستقلّ الشعب شاكرْ

والقصيدة الثالثة بعنوان (على خطى المصطفى)، تتألّف من خمسة عشر بيتا، فيها تغنٍ ببعض خصال النبيّ محمّد صلّى الله عليه وسلّم وشمائله، وذكر لجانب من أحداث السّيرة النّبويّة المشرقة، استهلّها بقوله:

لاح نور الأصفياء... فانتشى الكون الضياء

مولد في كلّ عام فيل... ذكر خير الأنبياء

بنت وهب بالمخاض...ترتجي خير الدّعاء

ويذكر أيضا نزول الوحي عليه في الغار وكيف جاءه جبريل فقال له: "اقرأ"، وذهب إلى خديجة ترجف أوصاله ويقول دثروني دثروني:

ذاك جبريل تجلّى... ملك بالوحي جاء

قال:"اقرأ بسم ربّك"... أرعدت تلك السّماءْ

دثّروني لست أدري...أيّ خطب في حراءْ

القصيدة الرّابعة عنوانها (**فلّة والأقزام السّبعة**):

قصيدة من ثلاثة عشر بيتا، يتناص فيها مع قصّة فلّة والأقزام السبعة المشهورة عالميا، والمعروفة على شكل قصّة كتبها الأخوان جريم، وهي في الأصل من القصص الشعبي الألماني، وهناك من يسميها (بياض الثلج)، كتبت بعشرات الأقلام العالمية والعربيّة بصياغات وأساليب مختلفة، وقد صاغها شاعرنا نبيل شريط شعرا عذبا، بشكل مختلف تماما، إنّها فلّة العربية فلّة بنت البلد الأصيلة، ذات الأخلاق العالية ومما يقوله فيها:

فجرنا اليوم تجلّى... يبتغي الأنوار حلّة

في مروج يانعات... مسّها ضيم وولّى

إلى أن يقول فيها:

تقطف الأزهار فخرا...لم ترم في القيد ذلا

تحفظ الأخلاق درسا... إنّها الحسناء فلّة

القصيدة الخامسة هي قصيدة (**الدّيك المغرور**):

والتي سبق له نشرها في مجلّة البسكري الصّغير العدد الثاني، التي تصدر عن فرع اتحاد الكتاب بولاية بسكرة، وتتألف من أربعة وعشرين بيتا وهي أطول قصائد الدّيوان، وربّما أكثرها إثارة وتشويقا، وهناك زيادة في الدّيوان ببيت واحد عما نشر في البسكري الصّغير، واختلاف يسير في صياغة الشطر الأوّل من البيت الثامن عشر وهو السّابع عشر في البسكري الصّغير، تروي القصيدة قصّة الدّيك في الخم وعلاقته بالدّجاج، يستهلها بقوله:

ديكنا يصحو صباحا...ينشد اللّحن الأصيل

يسعد القلب انشراحا... يلبس الرّيش الجميل

ثم يشرع في وصفه مبيّنا خصاله وشجاعته:

قرمزي اللّون يعدو... ماله عندي مثيل

خلته في الخمّ ليثا...حارسا بطّي الهزيل

وتستمر حياة الدّيك في سعادة وهناء إلى أن يظهر ديك آخر، يريد مشاركته مملكته الصّغيرة فينقضّ عليه مثل ليث ضارٍ، ويلحق به هزيمة نكراء، فيولّي هاربا غير ملتفت وراءه، وينفث الدّيك ريشه مفتخرا مخاطبا الشاعر في غرور وعنجهيّة:

لا تسل مكري هدوءا... ذالك خلقي يا نبيل

لكنّ الدّيك المغرور هو الآخر لقي نهايتَه الشنيعة، وصار وجبة عشاء، أُطعم منها الجدُّ المريض:

حضّرت أمّي ثريدا...أطعمت جدّي العليل

والإيدام لحم ديك...خلته كبش الخليل

يا لها من نهاية..! تسيء الصّديق وتفرح العدوّ، ولكن هذا هو دوما مصير المغرورين المتكبّرين.

سادس قصائد الدّيوان حملت عنوان (**الحسّون الجميل**):

وتشكّلت من أحد عشر بيتا، تروي قصّة طائر حسّون في قفص له صوت جميل صدّاح، لكنّه اشتاق إلى الطبيعة وموطنه الأصلي، يقول الشاعر في مطلع القصيدة:

لونه الأخّاذ لاحا... كلّما غنّى صباحا

صوته الصدّاح لحن...عبق كالورد فاحا

يعشق الأغصان وكرا... يغمر القلب انشراحا

وإذ أنّه ملّ القفص واشتاق إلى حياة الحريّة؛ انتهز فرصة ذات يوم وفرّ عائدا إلى الغابة الفسيحة:

ذات يوم فرّ سرّا...يبتغي منّي السّماحا

والقصيدة السّابعة تحت عنوان (**الصّغيرة..بائعة عود الثقاب**):

وهي طويلة نسبيّا خصوصا بالنّسبة للأطفال تقترب من قصيدة (الدّيك المغرور) في عدد أبياتها، إذ تألّفت من اثنين وعشرين بيتا، وقدّم لها الشاعر بقوله:

"عن رائعة القصّة العالمية بائعة الكبريت للأديب الدانمركي، هانس كريستيان".

يقول الشاعر في مطلعها:

يومها فصل العذاب...في دروب من ضباب

تؤنس الأطفال حينا...ثمّ تسلو بالكتاب

وهكذا يسرد علينا الشاعر قصّة بائعة الكبريت أو بائعة عود الثقاب كما سمّاها، واصفا كلّ ما مرّ بها من متاعب وآلام حتى وصلت إلى نهايتها المأسويّة المحتومة:

عندما حلّ الصباح...وجثا موت القلوب

مزّق البرد وشاحا... واعتلى النّاي النّحيب

هي مبادرة طريفة ومنهج متفرّد في إعادة صياغة القصص العالمية شعرا. وخاتمة قصائد الدّيوان بعنوان مثير (الأرنب العنيد)، فما قصّة هذا الأرنب..؟ إنّه أرنب عابث، يعيث فسادا في المزرعة أو فناء الدّار يكسر بيض الدّجاج ويكسر سيقان الورد، وهدم وكر بعض الحيوانات:

لم يزل يكسر بيضا...تنتشيه الكبرياء

عابثا بالخمّ جهلا...هدّ وكر الضعفاء

فلمّا سمع الرّاعي الضجيج خرج يحمل بندقيته وأردى الأرنب قتيلا فصار:

يغزل الفرو سريعا...في وشاح أو رداء

ويطبخ اللّحم شهيّا... في قدور الكرماء

تراوحت القصائد بين أحد عشر بيتا وأربع وعشرين، وتكون بذلك قسمة مشتركة بين الأطفال ما دون اثنتي عشرة سنة واليافعين الذين يقاربون الثامنة عشرة، وهي تستهوي الكبار أيضا بلا شك، لاسيما من يرافقون أطفالهم في المطالعة، ويوجهونهم أثناء القراءة وتحصيل المعارف.

وفي القصائد تنويع مقبول – على قلّة عددها– إذ شمل التغني بالوطن ومآثر الأجداد، وسرد الحكايات التي تحمل العبرة والدّرس النّافع، وهذا ما يدفعنا إلى البحث عن القيم التربويّة والمعرفيّة في هذا الدّيوان.

قيم تربويّة ومعرفيّة:

- أوّل قيمة تقابلنا في هذا الدّيوان هي (حبّ الوطن والاعتزاز بتاريخ الآباء والأجداد)، ويتجلّى ذلك بكلّ وضوح في قصّتي (في ضيافة بسكرة) و(وصلة في حبّ الجزائر).
- القيمة الثانية هي غرس محبّة النّبي صلى الله عليه وسلّم في نفوس الأطفال، وتعريفهم ببعض خصاله، وجانب من سيرته الزّكيّة، ويظهر ذلك في قصيدة (على خطى المصطفى).
- التعاطف مع الأيتام والفقراء والإحساس بمآسيهم مثل قصّة "بائعة عود الثقاب".
- ذم خلق العناد والعبث وعدم الاكتراث بالآخرين (الأرنب العنيد).
- تمجيد الحريّة وغرس قيمتها الكبيرة في نفوس الأطفال (الحسّون الجميل).

البناء الفنّي في الدّيوان:

ثقافة الشاعر والتوظيف البديع:

الأديب نبيل شريّط شاعر موهوب، ونلمس تلك الموهبة بسهولة ويسر عندما نقرأ قصائده ونجد فيها تلك الانسيابيّة الرائعة التي تطبع معظم شعره سواء الموجه للصغار أو للكبار، ولا شك أنّ للجانب الوراثي في هذه الموهبة نصيبا لا ينكر، ورغم أنّ تكوينه الأكاديمي علميّ بالدّرجة الأولى، كونه طبيبا متخصصا، إلا أنّه في الوقت نفسه متمكن من اللّغة، ضليع في

الأدب متشبّع بتراثنا العربي الإسلامي مع تفتّح كبير على الثقافة العالمية، التي هي رافد إنساني لابدّ لكلّ مثقّف جاد أن ينهل منه.

وهذه الثقافة المتشبّعة بقيم التراث والتاريخ والأصالة والمتفتّحة على مخزون الثقافة العالمية؛ تظهر في قصائده في هذا الدّيوان بكلّ وضوح، وذلك من خلال استحضاره لشخصيّة عبد الحميد بن باديس وتراث جمعيّة العلماء المسلمين الجزائريين وكذلك شخصيّة الأمير عبد القادر الجزائري وجهاده ضدّ المحتلّ الفرنسي في قصيدة (**وصلة في حبّ الجزائر**)، وقصيدة (فلّة والأقزام السبعة).وغيرها.

وقفة مع العناوين:

إذا لم يؤثر الشاعر في الطّفل بالعنوان مباشرة فقد فشل في استقطابه أو إيصال رسالته إليه، وقد يصبر القارئ الكبير (الرّاشد) على العناوين الثقيلة أو الغامضة التي لا تحمل إيحاء مغريا، لكنّ الطّفل فطريّ ومباشر في سلوكه غالبا، ومن هنا تأتي أهمية العناوين الجذّابة والمحبّبة لدى الطّفل.

العنوان الكبير (**مملكة الأمراء الصّغار**) تحدّثنا عنه في بداية هذه القراءة وقلنا أنّه توفّر على خصائص العنوان الجاذب والمغري للطفل، وهو مفتاح الكتاب وبابه المشرع الذي يدخل منه القارئ إلى عوالمه المختلفة، ونضيف شيئا آخر لعلّه يفيد في هذه القراءة، وهو أنّ العنوان يشعر الطّفل أنّه سيلج مملكة هي مملكته وله فيها نصيب، لأنّ كلمة الصّغار مفتاح سحريّ يفتح كلّ الآفاق بسهولة ويسر.

العناوين الفرعيّة:

أغلب العناوين تخاطب عقل الطّفل وقلبه معا: (في ضيافة بسكرة/ على خطى المصطفى/ فلّة والأقزام السبعة/الدّيك المغرور/الحسّون الجميل/ الصّغيرة بائعة عود الثقاب/ الأرنب السّعيد)، كلّ هذه العناوين فيها كلمات مفتاحية هي من عالم الطفولة، وأليفة لدى الطفل،بعضها مرّت به في الرّسوم المتحرّكة التي شاهدها على التلفاز وفي بعض القصص المطبوعة، وبعضها مكوّن من كلمات أثيرة لديه وأليفة، إلا عنوانا واحدا وهو(وصلة في حبّ الجزائر)، فرغم جمال العنوان وقوّته الفنيّة إلا أنّ فيه شيئا من الصعوبة والعسر، فكلمة وصلة

تحتاج إلى شرح بالنّسبة للطفل، وهذا الشرح يحيلنا على اللّغة المجازية للعنوان التي تحتاج إلى تفكيك شيفرتها من قبل أحد الرّاشدين ليبيّن دلالتها الفنيّة للطفل.

كما نجد في عنوان (فلّة والأقزام السبعة) تطابقا كاملا مع العنوان الروتيني الشائع، وهذا له جانب إيجابي كما له جانب سلبي أيضا، فهو من جهة يحيل على القصّة العالمية المحبّبة الشهيرة، ويعرفها للأطفال بسهولة، وتلك ميزة، ومن جهة أخرى قد يشي بالتكرار أو الاجترار لما هو مألوف، وقد يشكل ذلك عائقا نحو إغراء الطفل باكتشاف الجديد، ولعلّ عامل بناء القصّة بشكل شعري يكون موازنا للأمر ويعدّل كفّة الميزان.

ونقف عند عنوان (الصّغيرة.. بائعة عود الثقاب) لنتملّاه قليلا، العنوان في ظلال العنوان الأوّل الشائع والمترجم من اللّغات الأجنبيّة، مثله مثل (فلّة والأقزام السّبعة)، لكنّه يختلف عنه بعض الاختلاف، إذ نجد نصّ العنوان الشائع هو (بائعة الكبريت) وقد أحسن الشاعر إذ غيّر في حلّته، لكن وددت لو أنّه جعل كلمة عود بصيغة الجمع لكان وقعها في الأذن أقوى فتكون (بائعة أعواد الكبريت)، والطّفل ينظر دوما إلى الدلالة المباشرة للعنوان، فعود وإن كان فيه معنى اسم الجنس فيدلّ على الجمع، إلا أنّه أقرب إلى صيغة المفرد في قراءة الأطفال وفهمهم، فيظنّ أنّه عود واحد، ومن ثمّ يستغرب كيف تبيع الفتاة عودا واحدا..!

يبقى عنون (الحسّون الجميل) و(الأرنب العنيد) فرغم دلالتهما المباشرة لكنّ اقتران كلمة الحسّون وهي تنطوي على جرس موسيقي عذب مع كلمة جميل، وكذلك كلمة الأرنب مع كلمة العنيد التي تستفزّ فضول الطفل؛ تجعل من هذين العنوانين على جانب كبير من التأثير الفنّي في نفسيّة الطّفل.

اللّغة والأسلوب:

لغة الشاعر نبيل شريط تكتسي جمالا وجاذبية واضحة، وتدلّ على تمكنه من ناصية الشعر، وله القدرة على الاختزال أو التطويل كما يحلو له، حيث نجده يكتب القصيدة ذات العشرة أبيات، وهي فوق المقطوعة (سبعة أبيات) بقليل، ويكتب القصيدة الطويلة نسبيا (أربعة وعشرون بيتا) بالنّسبة للأطفال، وهذا من قوّة العارضة كما يقال في المصطلح الشعري النّقديّ.

وألفاظه منتقاة بعناية من القاموس اللّفظي المتاح للطفل في بيئته المدرسية، ووسطه الثقافي، لكنّه ككلّ الشعراء الذين يحملون رسالة سامية وقيما عالية فإنّه يسعى إلى بث بعض الكلمات القويّة وغير المألوفة لدى الطّفل ليزوده بمعجم لغوي جديد، وألفاظ يحتاج إليها في نموه الثقافي والفكري، وإذا اضطر إلى شرحها فهو يهمش لها أسفل القصيدة، ليبيّن له المراد منها، مثلما ما فعل مع كلمة (عقبة) عند قوله من قصيدة (في ضيافة بسكرة):

من فتوحات وصحب * * عقبة والقنطره

فأشار إلى أنّ المقصود بكلمة عقبة؛ هو الفاتح الكبير عقبة بن نافع الفهري، الذي فتح بلاد المغرب الكبير، كما لجأ أيضا إلى شرح كلمة الشنفرى في القصيدة نفسها، لأنّها كلمة غريبة جدا على مسمع الطّفل، لكنّها جزء من ثقافته العربيّة سيجدها مستقبلا في مساره الدّراسي أو الثقافي، وهمّش لها بقوله:

"الشنفرى هو شاعر جاهلي"

وبعض الألفاظ القويّة من عالي اللّغة وجزلها نمثل لها بما يلي:(زانت/ غائر/تعبق/ فانتشى/ أبادت/ حاك / خَطْبٍ/ يانعات / قرمزيّ/ تثنى...).

هذه الكلمات هي دفق لغوي يغني قاموس الطفل ويثريه، وإن بحث في القاموس وفتّش عن معاني الكلمات ازداد معرفة باللغة وفهما لأسرارها، وإحاطة بقاموسها الثري، إلا أن تكون هذه الكلمات العالية في العناوين فإنّي لا أميل إلى استعمالها إلا مع فئة الفتيان، فهم أقدر على البحث وأمكن من فهم المدلول في سياقه العام.

الومضات القصصيّة:

طعم الشاعر قصائده بالأسلوب القصصي، مثل قصّتي (الدّيك المغرور والثعلب الماكر)، إذ كان بناءهما على شكل قصّة شعريّة، لكن غلب عليها الوصف أكثر من السّرد، وفي بقية القصائد الأخرى نجد الومضات القصصيّة، خصوصا في قصيدتي (في ضيافة بسكرة) و(وصلة في حبّ الوطن)؛ عندما يروي بطولات وأمجاد بسكرة فيذكر عقبة وفتوحاته وسيدي زرور الذي شطر قبره وادي بسكرة الكبير ومعطي البشير صاحب الألحان الجميلة في الليالي المقمرة، وخالد بن سينان العبسي الذي يقال أنّه نبيّ من الأنبياء:

خالد يا بن سنـــان * * عربيّ المفخـــره

يؤنس الألحان "معطي" * * في الليالي المقمره

فكلّ ومضة من هذه الومضات المركزة تلخّص تاريخا عظيما وملحمة من ملاحم الأمّة وتروي تاريخها السّني، الحافل بالبطولات، وتظهر الومضات القصصيّة بشكل جليّ في قصيدة (على خطى المصطفى)، والتي لخّصت كثيرا من مشاهد مولد النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم، ومما جاء فيها:

مولد في عام فيل ** ذكر خير الأنبياء

بنت وهب بالمخاض * * ترتجي خير الدّعاء

طلّ بدر بعد حين * * وجهه سرّ البهاء

ثمّ يروي قصّة أبرهة والفيل والطير الأبابيل، وجبريل ونزول الوحي، كلّ ذلك في ومضات قصصية سريعة:

سل أبابيل أبادت * * أشرما حاك الدّهاء

ذاك جبريل تجلّى * * ملك بالوحي جاء

قال: "اقرأ بسم ربّك" ** أرعدت تلك السّماءْ

دثروني لست أدري * * أيّ خطب في حراءْ

هذا الأسلوب الشعري القصصي أكثر الأساليب نجاحا في اجتذاب شهيّة الطّفل، وإغرائه بالقراءة، إنّه يجمع بين خصائص القصّة السّرديّة ومميزات الشعر الغنائيّة الشادية.

جمال المطالع:

ومن خصائص البناء الفنّي في هذا الدّيوان جمال مطالع قصائده فهي العتبة الثانية بعد العنوان الذي يعطي الانطباع الأولي للطفل عن مضمون القصيدة، ومطلع القصيدة يقود الطّفل مباشرة إلى الإقبال على قراءتها أو الانصراف عنها، بلا مجاملة ولا تكلّف فهو فطري السلوك تلقائي التّصرّف.

ومن القصائد التي وفق الشاعر إلى حبك مطلعها ببراعة قصيدته (الحسّون الجميل)، حيث يقول في مطلعها:

لونه الأخّاذ لاحا * * كلّما غنّى صباحا

فهو إلى جانب اعتماده على مجزوء بحر الرمل، ليكون فيه خفّة وسهولة على الطّفل أثناء القراءة أو الإنشاد فإنّه زانه بالتصريع الذي يعزز من قوّته النّغمية (لاحا / صباحا)، فضلا عن الجناس الذي تميزت به اللّفظتان، كما أنّ انتقاء الحاء ليكون حرف روي؛ طبعه بجرس موسيقي يشبه صيغة الأذان التي فيها النّداء والدّعوة إلى القدوم والإقبال، وهي تركيبة موسيقية ناجحة في سبك المطلع وإلقاء مسحة جمالية عليه.

وهذا مطلع قصيدة (الصّغيرة.. بائعة عود الثقاب):

يَوْمُهَا فَصْلُ الْخِطَابْ * * فِي دُرُوبٍ مِنْ ضَبَابْ

فيه قوّة وجرس يحدث دويّا هائلا سببه هذه الكلمات (فصل/الخطاب/ دروب/ ضباب)، بالإضافة إلى اعتماد التَّصريع والجناس مرّة أخرى، وكلّها عناصر فنيّة تتآلف وتتضافر لتحدث التأثير المطلوب في نفس القارئ (الطّفل) وتخاطب وجدانه مباشرة. ونقول الأمر نفسه في مطلع قصيدة (وصلة في حبّ الجزائر):

في بلاد العرب ثائر * * موطن ربّي الجزائر

لكن في مطلع قصيدة (على خطى المصطفى) نحسّ ببعض الثقل في الشطر الثاني من البيت، عندما يقول:

لاح نور الأصفياء * * فانتشى الكون الضياء

فعبارة (انتشى الكون الضياء) لنا عليها تحفظ نحوي، ولعلّه هو ما أحدث الخلل في تناسق البيت وانسيابيته، رغم ما في معناه من صورة مجازية رائعة؛ لأنّ الفعل انتشى فعل لازم، وحتى يتعدّى يلزمه حرف جرّ، فنقول انتشى بالضياء، أمّا انتشى الضياء باعتبار أنّ الضياء مفعول به فلا يصحّ.

وفي قصيدة الأرنب العنيد كان المطلع جيّدا من حيث الجرس الموسيقي، والشحن الفنّي (التّصريع والجناس النّاقص):

ذاتَ يومٍ في الشّتاءْ * * يحجبُ الغَيمُ الضِّياءْ

غير أنّ تغيير النّسق الزمني من الماضي (ذات يوم) إلى المضارع (يحجبُ الغَيمُ)، وهذا التغيير المفاجئ ربّما فرضته ضرورة الوزن، لكن أحدث قلقلة في تجانس المطلع، وهزة في الدلالة العامة للبيت..!

ويبقى الدّيوان في الإجمال إضافة نوعيّة مميزة، إلى مكتبة الطّفل الجزائري التي بدأت تتسع آفاقها وتتنوّع روافدها.وتسجل حضورا لافتا في المشهد الثقافي العربي.

قراءة في قصة (بقرة اليتامى)

لرابح خِدُوسي وبنت المعمورة

قصّة من أشهر قصص التراث في الجزائر، دخلت كلّ بيت وجرت على ألسنة الأمهات والجدّات، وشكّلت جزءا من ثقافة أجيال متتابعة زمن الحقبة الاستعماريّة وفترة الاستقلال الأولى، ربّما إلى غاية انتشار التلفزيون حيث بدأت تتغيّر مصادر ثقافة النّاس، بشكل متنوّع ومختلف. وقد يمتدّ تاريخها إلى أبعد من ذلك، ومن علامات انتشارها بشكل كبير أنّها تُروى أيضا في التراث الأمازيغي الذي هو جزءٌ أصيل من التراث الجزائري.

كاتب القصّة هو الأستاذ الأديب الكبير رابح خدّوسي بالتعاون مع الروائيّة المعروفة عائشة بنور التي كانت توقّع كتاباتها باسمها المستعار (بنت المعمورة)، وهي زوجة الأديب رابح خدوسي وشريكتُه في كثير من الأعمال الأدبيّة النّاجحة، وفي المشروع الثقافي الكبير (دار الحضارة)، الذي قلت عنه مرّة أنّه يقوم بأعمال عجزت عنها وزارة الثقافة في بلادنا.

صدرت هذه القصّة في طبعة عن اتحاد الكتّاب العرب بدمشق عام 2001 م، ضمن مجموعة من القصص الأخرى الموجّهة للأطفال، وكانت هي افتتاحيّة هذه القصص، بل شكلت عنوانها الرّئيسي (**بقرة اليتامى وقصص أخرى**)، وصدرت في طبعة مستقلّة من قبل عن دار الحضارة عام 1998 م. كما أنّ لها طبعتين أخريين لم أطلع عليهما، لكنّ الأستاذ رابح خدوسي أخبرني أنّ الطبعة الأخيرة منقّحة ومترجمة إلى الفرنسيّة والإنجليزية.

هذه القصّة يوحي عنوانها (بقرة البتامى) بكثير من مضمونها، حيث كان هناك طفلان، بنت وولد اسمهما (ظريف ومرجانة)[1] وطبعا الأسماء تختلف من منطقة إلى أخرى ، وكذلك تتغيّر

[1] – في التراث الأمازيغي (الأوراسي) يسمّى الطّفلان (ذبيرة وعلي زرزب). ولهما أسماء أخرى في جهات مختلفة، لكن أسوأ ما وجدت من القصص التي حول هذه الحكاية؛ قصّة يبدو أنّ كاتبها شيعيّ (نشرت في موقع العين الإخبارية الإلكتروني) حيث جعل اسم الطفلين فاطمة والحسين، وجعل أختهما من الأب والتي كانت شريرة جعل اسمها عائشة، وتنادى زوجة الأب أمّ عائشة، وهذا من أحط ما يقدّم للطفل المسلم من سوء تربية تحظ على

تفاصيل القصّة بحسب المنطقة التي تروى فيها، هذا الأخوان كانا يعيشان في سعادة ورخاء مع والديهما، لكن شاءت الأقدار أن تموت الأم ويبقى الطفلان مع أبيهما بضعة سنوات، لكنّ الأب يقرّر الزواج رغبة منه في رعاية ابنيه والاهتمام بشؤون البيت من امرأة طيبة، تحسن التعامل مع الأطفال وتدبير المنزل.

وحدث ما لم يتوقعه الأب إذ كانت المرأة قاسية القلب حاقدة على الولدين، ولها ابنة سمّتها (عسلوجة) تؤثرها عليهما بكلّ شيء، وتمنع عنهما الطعام حتى يشتدّ بهما الجوع، فلا يجدان إلا البقرة التي تركتها لهما أمّهما فيذهبان إليها ويرضعان حليبها من ضرعها مباشرة، ومع مضيّ الوقت تتحسّن صحتهما وتزداد نضارة وجهيهما، الأمر الذي يلفت انتباه زوجة الأب وهي ترى ابنتها شاحبة اللّون هزيلة البدن، فتأمر ابنتها أن تتبع الطّفلين وتنظر ماذا يأكلان، فتأكل مما يأكلانه، وتشرب مما يشربانه لتصبح مثلهما في نضارة الوجه وصحّة الجسم.

وتفعل البنت (عسلوجة) ما أمرتها به أمّها وتكتشف أنّ الطّفلين إذا جاعا يشربان من حليب البقرة مباشرة، فتتقدّم هي الأخرى منها وتحاول شرب الحليب من ضرعها، لكنّ البقرة ترفع حافرها وتصك الفتاة في عينها فتصيبها بالعَوَر، وعندما تعود إلى أمّها تخبرها بما جرى لها، فتطلب من زوجها بيع البقرة وتلحّ في ذلك، فيبيعها إلى جزار، وعندما يأوي إلى فراشه في تلك الليلة، يرى زوجته الأولى في المنام تعاتبه وتلومه على ما فعل، وتطلب منه أخذ قرنَيْ البقرة وضرعها من الجزار ووضعهما فوق قبرها، ويستجيب لطلبها.

بعد أيّام يشتدّ الجوع والعطش على الطّفلين (ظريف ومرجانة)، ولا يجدان لهما ملجأً سوى قبر أمهما، وعندما يصلان إليه يتفاجآن بوجود ضرع البقرة على القبر ممتلئا حليبا، كما يجدان القرنين قد تحوّلا إلى نخلتين حافلتين بالتمر، فيشربان الحليب ويأكلان التمر حتى يشبعا.

وتعلم زوجة أبيهما بالأمر فتذهب إلى القبر وتضع القطران في جذور النخلتين فتيبسا، كما تقوم برمي الضرع الممتلئ حليبا إلى الكلاب فتأكله، وتضغط على زوجها فيطرد الطّفلين

الحقد والكراهية.، إذ لو أنّه سمّى الطفلين فاطمة وحسين لبدا الأمر طبيعيا ولا غبار عليها، أما أن يسمّي الطرف الشرير عائشة ففيه من الإيحاء السّيئ ما فيه.

ويرمي بهما في الغابة، وأثناء سيرهما يشعران بالعطش الشديد فيمرّان بنهر مسحور، ويريد الطفل أن يشرب منه لكنّ أخته تحذّره، ويغافلها ويشرب منه، وفي لمح البصر يتحوّل إلى غزال، تتأثر أخته بذلك وتبكي بكاء شديدا.

وبينما الأخت (مرجانة) ذات يوم قرب النهر مع أخيها؛ تسقط شعرة طويلة من شعر رأسها الذّهبي، ويحملها النهر إلى حيث كان سلطان البلاد يستريح من رحلة صيد، فيأمر بالبحث عن صاحبة الشعرة، ولكنه يفشل في إيجادها، ويستمر الأخوان في سيرهما داخل الغابة، وهناك يصادفان عجوزا طيبة تؤويهما في كوخها وترعاهما، ويحلّ الخير بها وببيتها، إلى أن يأتيها أحد التجار ليشتري منها الأعشاب الطبية، ويعطيها ما تحتاجه من مؤونة، ثم تتحوّل تلك الأعشاب إلى ذهب، فيأخذه التاجر إلى السلطان، ويخبره بالقصّة، ويأمر السلطان جنوده بإحضار العجوز ومن معها.

ويكتشف أنّ الفتاة التي مع العجوز هي صاحبة الشعرة التي يبحث عنها، فيتزوجها وتعيش معه هي وأخوها في قصره، ويقصد أبوها القصر ذات يوم طلبا للمساعدة فتعرفه ابنته، وتؤويه إليها وتطلب منه إحضار زوجته وابنتها إلى القصر، وذات يوم وفي غفلة من الحراس تقوم أختها (عسلوجة) برميها في البئر ، وهي حامل بابنيها التوأمين، ويعلم السلطان بالأمر ، فيلقي القبض على زوجة الأب الشريرة وابنتها وينقذ زوجته ويأمر بنفي المرأة وابنتها من مملكته.

حقيقة القصّة:

تعدّ هذه القصّة بمثابة أسطورة غرائبيّة يختلط فيها الواقع بالخيال، وبمقاييس النّقد الحديثة يمكن تصنيفها ضمن أدب الفتيان (اليافعين)، نظرا لطولها وكثرة أحداثها، ولأسلوبها الذي يتناسب مع الفئة العمريّة فوق اثنتي عشرة سنة، ولقد استخدم الكاتبان ألفاظا وعبارات من النوّع الذي يقترب من لغة الكبار أحيانا مثل قولهما (بأفراحها وأتراحها / يستعيد تذكرها زفير الزمن/ في سخرية دامعة)، فهذه العبارات هي أقرب إلى أسلوب الكبار، ولذلك نميل إلى تصنيفها في خانة رواية (اليافعين).

التزم الكاتبان سرد القصّة بأحداثها كما هي تقريبا، مع التنبيه – مرّة أخرى – إلى اختلاف التفاصيل من جهة إلى أخرى من جهات الوطن، ولعلّها أيضا تروى في بلاد العرب الأخرى بطريقة مختلفة.

أهداف القصّة:

في القصّة أهداف كثيرة يمكن استخلاصها من متنها وطريقة سردها، وسنحاول حصرها في النقاط التالية:

- الهدف الأوّل برأيي هو إحياء التراث وتحويل الحكايات الشفويّة المنقولة بالسّماع إلى حكايات موثقة ورقيّا. لاسيما أنّ دار الحضارة تهتمّ كثيرا بإحياء التراث والمحافظة عليه، ولها كثير من الإصدارات في هذا المجال.
- القصّة تحتوي على كثير من القيم الأخلاقيّة والإنسانيّة، منها التآزر بين الأخ وأخته، تعريف الأطفال بصعوبة حياة اليتم ، وأهمية التعاطف مع الأيتام، إدراك مكانة الأم وقيمتها في حياة أبنائها، إلى درجة أنها تسعى إلى رعايتهما بعد وفاتها (وهذا من الخيال أو الأساطير التي تعجب الأطفال وتشدّ انتباههم وإن كانت منافية للحقيقة).
- انتصار الحقّ دائما وفي نهاية المطاف يكون الفوز للمظلومين, والعقاب للظالمين.
- التسلية والمتعة ، إذ أنّ أمثال هذه القصص كانت تروى غالبا في السهرات الليلية شتاء وصيفا، حيث لا يوجد أية وسيلة تسلية في ذلك الوقت ، قبل اختراع التلفاز ووسائل التسلية التكنولوجية الحديثة.

البناء الفنّي في القصّة:

اعتمد الكاتبان على الأسلوب الحكائي الذي يشبه أسلوب الجدّات (قديما)، وهو أسلوب متجدّد في حقيقة الأمر لا يكاد يفقد نكهته ونضارته، ولذلك بدأ الكاتبان الحكاية على لسان الجدّة زينب:

"يا أبنائي سأقصّ عليكم حكاية (بقرة اليتامى) القصّة التي أبكت الأجيال.." ص 03

ومع ذلك مُزِجَ هذا الأسلوب بنوع من اللّمسات الفنيّة التي تنمي الخيال في ذاكرة الطفل، وتطلق لتصوّراته العنان ومنه قول المؤلّفَين:

"تغمر السّعادة قلب الرّجل السّاكن الكوخ، تحت زقزقة العصافير وزرقة السّماء .."

- الأسطورة (الغرائبيّة) تدخل في كامل النسيج الحكائي للقصّة، والطّفل يميل إلى القصص التي من هذا النّوع، القصص التي تخرق جدار المعقول والواقع، وتبدع في افتعال أحداث لا تُصدَّق، لكنّ خيال الطّفل ينساق معها ويتلذذ بقراءتها أو الاستماع إليها، ورغم أنّ أمثال هذه القصص تروج في البيئات التي ينتشر فيها الجهل والأميّة والتخلّف، إلا أنّه يمكن استغلالها وتهذيبها لتبليغ رسائل تربوية وثقافيّة هادفة.

- تطعيم الأسلوب الفصيح ببعض الخصائص السّردية التي وردت في المتن الحكائي الأصلي الذي كان باللّهجة الدّارجة (العاميّة). ومن أمثلته نسوق النماذج التالية:

"لو كان ما لساني لحلاح ما خذيت المدّاح، هذا حال الدنيا يا كبادي" هذه المقولة للجدّة زينب في تعليقها على أحداث القصّة، والمقصود منها أنّ الأب ندم على تورطه بالزواج من تلك المرأة الشريرة، وفي تعليق آخر يقول الشيخ نفسه:

"هي تقول وأنا أقول.. هي تقول وأنا أقول حتّى غلبتني بالقول.."

يعني أنّ الرّجل يقول أمرا وتراجعه المرأة بخلافه، وتصرّ وتكرر قولها حتّى تغلبه، والعبارة في أصلها مأخوذة من الدارجة (هي تقول ونَا نقول..) - بتفخيم القاف – لكنّ الكاتبين هذّباها لتكون أقرب إلى الفصح، وهي في الأصل قريبة منه فعلا. والأصل في القصّة أنها تأتي في أغلبها بعبرات مسجوعة ومنّغمة بالعامية، فيكون وقعها أكبر وتأثيرها أعظم في نفوس الأطفال، بل إنّها تشدّ إليها الكبار أيضا وتستهويهم.

شخوص الحكاية:

الطفلان الأخوان اليتيمان: (ظريف ومرجانة)، يتميّزان بالبساطة والطيبة، ولا حيلة لهما إلا ما يصنعه القدر لهما، والطّفل يحب القصص التي يكون الأطفال فيها أبطالا، كما يتعاطفون مع البطل اليتيم المظلوم، الذي لا حيلة له ولا نصير.

الأب الطيب: وهو ساذج بعض السذاجة إذ يخضع لهوى زوجته، ويلبّي لها كلّ رغباتها رغم أنّها ضدّ ابنيه الصّغيرين، (شخصيّة ضعيفة).

زوجة الأب الشريرة: وهي تؤثر ابنتها على ابني زوجها وتدبّر المكائد لهما، لكنّها في النهاية تلقى نهايتها المأساوية المحتومة.

عسلوجة: هي فتاة شريرة مثل أمها تتميز بالحقد والحسد، رغم أنّ أخت (مرجانة وظريف من أبيهما)، وكلّ مكائدها تعود عليها بالوبال والهلاك.

ظريف: عندما يتحولّ إلى غزال وكأنما صار شخصيّة أخرى (حيوانيّة/ غرائبيّة) تعطي للأحداث طابعا درامتيكيّا، وتفضي إلى مرحلة من مراحل ذروة التعقد في القصّة.

السّلطان: أو الأمير في بعض الروايات الأخرى، هو الحلم المشتهى الذي من خلاله تحلّ كلّ المشاكل وتأتي النهايات السّعيدة.

البعدان المكاني والزماني:

أيّ حدث أو حكاية لابدّ لهما من بعد مكاني وزماني تجري فيهما تلك الأحداث، وأحيانا يكون البعد المكاني والزماني عاملين مهمين في مجريات تلك الأحداث، وأحينا أخرى يكون مجرّد (ديكور) مكمّل، وليس له كبير اعتبار في تطورات الأحداث، بحيث لو نقلت الأحداث إلى مكان آخر لما تغيّر شيء جوهريّ في مسار القصّة، وكذلك الأمر هنا في قصّة بقرة اليتامى، الزمان لا يكاد يكون له اعتبار عدا مضيّ الأيام بعد وفاة الأم، وبعد بيع البقرة وذبحها، وبعد رمي الطفلين اليتيمين في الغابة وهكذا..

أما البعد المكاني فله شيء يسير من الأهميّة من حيث أعطى نوعا من التنوّع في بيئة الأحداث، وشكلّ غلالة جميلة للطبيعة، عدا ذلك ليس له أهميّة ذات بال، رغم ذلك التنوّع من المكان الضّيق (الكوخ)، إلى الغابة الواسعة المليئة بالمخاطر، ثم النهر، فقصر السلطان الذي يتوج نهاية أحداث القصّة بالسعادة والمسرّات التي يتوق إليها كلّ إنسان، بَلْهَ الأطفال الصّغار.

ولعلّ السبب في عدم إعطاء أهميّة كبيرة لهذين البعدين؛ أنّ القصّة صارت تتجاوز كلّ ذلك إذ تناقلتها الألسنة في كلّ مكان وعاشت أزمنة متعدّدة، وتبناها كثير من النّاس وصاروا ينسبونها إلى مناطقهم وجهاتهم، وحتى أسماء الأبطال تتغيّر حسب الجهة والمكان الذي تنسب

إليه، ولربما تقاطعت في بعض تفاصيلها مع بعض القصص العالمية (الأوربيّة)، مثل قصّة (هنسل وقريتل)، وكذلك قصّة (سندريلا) أو ثلجة البيضاء.

وهنا يصبح تحديد الزمان بالخصوص غير مجدٍ كثيرا، فما الفرق بين أن نقول أنّ هذه القصّة وقعت في شمال إفريقيا أو الهند أو الصّين، المهم العبرة منها والهدف من روايتها، ورمزيتها في انتصار الضعف الذي معه الحقّ والقوّة أو الحيلة التي تلبست بلبوس الظلم والباطل.

مسعود عثماني كاتبا للأطفال

الكاتب الباحث مسعود عثماني[1]، من رجال التربية القدامى، باحث متمرّس ومبدع دؤوب ، كتب في تاريخ الثورة وعن رجالاتها وأحداثها العظام، وكتابه (من اغتال ابن بولعيد)، في أربع طبعات، وكذلك كتابه (أوراس الكرامة) شاهدان على ذلك، وهو العارف بهذا المجال لأنّه يعيش في قلب الأوراس (تيغانيمين)، وهي على مرمى حجر من (أريس) مسقط رأس الشهيد مصطفى ابن بولعيد وقلعة الثورة التحريريّة المباركة، وله مؤلفات في مجال التربية والتعليم ، مجاله الأساسي، وكتب أيضا للأطفال منطلقا من خلفيّة المربّي الذي قضى ردحا كبيرا من الزّمن في ميدان التعليم، أستاذا فمستشارا ثمّ مفتشا.

وسنركز في هذه القراءة على مجال مساهمته في أدب الأطفال، الذي له فيه تجربة لا بأس بها، يمكن أن تعتبر ثريّة نسبيّا، وله في مجال أدب الطّفل عددّة إصدارات مهمّة، نذكر منها:

1 - العجوز والمذيا ع

2 – تاباكو

3 – من المفرغة إلى المزرعة

4 – العجلة (مسرحيّة).

وهي قصص في عمومها مأخوذة من واقع حياتنا اليوميّة أو من تراثنا الشعبي الغني، تعالج قضايا المجتمع الجزائري وتتعرّض لبعض الظواهر السلبيّة التي انتشرت في وسطه، مثل بعض

---

[1] – مسعود عثماني من مواليد 25 جويلية 1946 م ، ببلديّة تيغانيمين ولاية باتنة، مفتّش التربية الوطنية في التعليم الابتدائي، كاتب مهتم بالتاريخ له عدّة مؤلفات مطبوعة، منها كتاب (من اغتال ابن بولعيد) وكتاب (أوراس الكرامة). وكتب أخرى في مجال التربية والتعليم، بالإضافة إلى بعض الكتب والمسرحيّات الموجّهة للأطفال.

العادات السيئة والاعتقادات الفاسدة، وسنعرض لكل ذلك بشيء من التفصيل في هذه الدّراسة.

قصّة العجوز والمذياع:

وقد تمّ طبعها بدار الهدى للطباعة والنّشر والتوزيع عين مليلة، ولم يذكر فيها سنة الطبع، وهذا من عيوب المطابع عندنا فرغم احترافيّة (دار الهدى)، ويفوتها أمر بسيط كهذا يعدّ أمرا معيبا.

هي قصّة طريفة ذات دلالات وأبعاد قيّمة عظيمة في وسط المجتمع الجزائري، ولقد تلقّفها الكاتب من شفاه الشيوخ والعجائز الذين عايشوا ثورة التحرير المباركة، وملخصها أنّ مجموعة من المجاهدين أثناء الثورة أحضروا معهم مذياعا لسماع الأخبار في بيت عجوز استضافتهم لأخذ بعض الطعام ، لكنّ قوّات العدوّ الفرنسي اقتربت من المكان، فاضطر المجاهدون إلى الانسحاب على عجل، وتركوا المذياع مشغّلا ، وكان المذياع في تلك الفترة وفي ذلك الوسط الجزائري الذي تعمّه الأميّة والجهل؛ شيئا نادرا وغريبا، ولأنّ العجوز كانت أميّة لا تعرف حقيقة المذياع ولا كيف تشغله أو تطفئه، وخافت أن يكتشف أمره جنود العدوّ الفرنسي، فجعلت تخاطبه:

- أما زلت هنا ؟ أنت مجنون ؟ ألا تخاف من العسكر ؟ أصحابك هربوا وأنت لازلت تنتظر، أنجُ بنفسك قبل أن يصل العدوّ..!

ولا يتحرّك المذياع ويستمر في إرسال الأصوات الحماسيّة التي تحظُّ على الثورة، فتطلب منه السّكوت متوسّلة، لكنّ المذياع لا يسكت، فكرّرت له الطلب عدّة مرّات فلمّا لم يستجب لها، اضطرت إلى أن تأخذ فأسا وتهوي بها عليه تكسيرا وتحطيما. وتروى القصّة في تراثنا الشعبي المتعلّق بثورة التحرير للاستطراف والتندّر، وربّما هو نوع من السّخريّة من متاعب الحياة ومشقّاتها، أثناء فترة المحتلّ الفرنسي، الذي يصحّ فيه القول عن حياة الشعب الجزائري أنّ (**شرّ البليّة ما يضحك**).

والكاتب وظّف هذه القصّة ليبين معاناة الشعب الجزائري في تلك الفترة نساء ورجالا، وكيف كانوا يتعاملون مع الأحداث بعفويّة وبساطة حيّرت العالم، لأنّها في نهاية المطاف هزمت أشرس مستعمر على وجه الأرض عرفته البشريّة.

البناء الفنّي في القصّة:

التوظيف التّاريخي:

وظّف الكاتب التراث الثوري الجزائري، الذي يُعَدّ من كنوزنا الكبيرة في الأدب العربي، سواء في مجال الشعر أو القصّة أو الرّواية وحتى المسرح، ومن فروع القصّة قصص الأطفال التي تشهد بعض المحاولات الجيّدة في اتخاذها منطلقا للكتابة للطّفل.

الأسلوب:

استخدم الكاتب أسلوبا محكما في السّرد القصصي، يظهر فيه حرص المربّي الذي يحفل باللغة كثيرا ويسعى إلى تبليغها إلى الأجيال في أجمل صورة ، وأنقى عبارة فتجد الألفاظ الجزلة الفخمة، يجمّل بها الكاتب نصّه ويزين عباراته. ومن تلك الألفاظ قوله: (مِغلاة/ جاشت/ الثمالة/ دكّة/ جرابه/ أخمص/ زناجير/ أزيز...) وغيرها من الألفاظ التي تعتبر من القاموس العربي الجزْل القديم ، وهو هنا يعمل على إحيائه وإثراء لغة الطّفل به، حتى لا تبتعد عن لغته الأصلية ، لغة القرآن الكريم.

الشخصيّات:

وتمثلت في **العجوز**: وهي شخصيّة غريبة بعض الشيء، إذ كيف تسكن وحدها على أطراف القرية، لكنّها بدت إيجابيّة وفاعلة في مساعدة المجاهدين، وكذلك في اعتنائها ببيتها ومحيطه، ويبقى أمر آخر لم يوضّحه المؤلّف بشكل دقيق، وهو سبب عدم معرفة العجوز للمذيا ع وكيفيّة إيقاف تشغيله، ولعلّ ذلك واضح بالنّسبة للجيل الذي عايش الثورة، وحتى الجيل الذي تلاها على مدى عقدين أو ثلاث من الزمن، أما الجيل الجديد ، فكان ينبغي على

الكاتب أن يوضّح له بطريقة غير مباشرة أنّ العجوز كانت أميّة، وكان المذياع شيئا نادرا جدا في تلك الفترة.

واعتمد المؤلّف عددا من **المجاهدين** (أفراد جيش التحرير الوطني) شخصيّات أساسيّة في القصّة، وسمّى من الجنود: الجندي رقم 1، وكذلك المذيع ، الذي كان يقرأ بيانات جيش التحرير الوطني.

الفضاء المكاني والزماني:

حدّد الكاتب الزمن بأنّه خلال الثورة التحريريّة، أي الفترة الواقعة بين 1954 إلى 1962 م، لكن لم يحدّد السّنة بالضبط، إلا أنّنا يمكن أن نستنتج الزمن بشكل تقريبي، فنقول أنّه في السنة الأولى للثورة، ويتضح ذلك من عدّة فقرات يذكر الكاتب فيها أنّ الثورة في انطلاقتها الأولى، مثل قوله ص 7:

"وقد بدأ النّاس يتعرّفون عن بعضهم ويقولون إنّهم مجاهدون جاءوا من مناطق مختلفة من الوطن كلّه منظمين في شكل جماعات صغيرة لمحاربة العدوّ حيث كان ولن يلقوا السّلاح حتّى يتحرر الوطن كلّه، ويرفرف علم الجزائر فوق كلّ بيتٍ، وقد بدأت هذه الجماعات تقترب من المواطنين.."

أمّا المكان فهو كوخ صغير على أحد أطراف قرى الأوراس الجبليّة النّائيّة ، والتي كانت ضمن (الولاية الأولى) ، وفق التقسيمات التي اعتمدتها الثورة التّحريرية، كما ذكر الكاتب أيضا جبل (شيليا)، وهو أيضا ضمن ولاية الأوراس، وتعتبر قمّة (شيليا 2328 م) ثاني أعلى قمّة في الجزائر بعد قمّة (تاهات أتاكور حوالي 3000 م) في الهقار، وحفلت نواحيها بالمعارك الثوريّة الكثيرة. وهذا كلّه يعتبر زادا معرفيّا يغني ثقافة الطّفل وينوّعها.

وبشكل غير مباشر أعطى الكاتب للطّفل معلومات دقيقة عن مجريات ثورة التحرير المباركة، في تلك المنطقة وكيف كان المجاهدون يتصلون بالشعب ويستعينون بأفراده في التموين والأكل والإيواء في بعض الأحيان، وأيضا في طريقة حصول أفراد جيش التحرير الوطني على أنباء

الثورة وتطوّراتها في كلّ المناطق، من خلال الاستماع إلى الأخبار والبيانات التي تبثها قيادة الثورة بواسطة المذياع (محور القصّة).

التصوير المشهدي:

لجأ الكاتب في كثير من الأحيان إلى تقديم مشاهد تصويريّة حيّة، تجعل القارئ كأنّه يشاهد الأحداث بأم عينيه ويراها ماثلة أمامه، ومن تلك المشاهد نأخذ هذا النموذج المتوهّج، الذي جاء في بداية القصّة يصف فيه حال البطلة وهي داخل كوخها ليلا:

"تنظر إلى المصباح كلّما اشتدّت الرّياح وقويت العواصف وتسرّب الهواء إلى الكوخ عبر الثقوب وما أكثرها في جدرانه، فترى لهيبه يتراقص ذات اليمين أو ذات الشمال ثمّ يستقيم ثمّ يتراقص كلّما عاودت الرّياح هبوبها..."

تصوير مشهدي جميل وحيّ ينقلنا إلى مسرح الأحداث ببراعة كبيرة، وهو من المشاهد المحبّبة للقارئ عموما وللطّفل خصوصا، ويعتبر هذا التصوير من الآليات الفنيّة التي تسهم في إنجاح النّص الإبداعي، وبهذا يحقق المؤلّف هدفين معا، إبلاغ الفكرة والمتعة الفنيّة بقوّة وبراعة.

قصّة (تاباكو):

قصّة في رسالة، رسالة طويلة تروي معاناة الفتى (فريد)، الذي أصيب بمرض السّل وأشفى على الهلاك، لولا أن تداركته رحمة ربّه، بعد أن قضى في المستشفى شهورا طويلة من المعاناة والألم، فقرر أن يرسل رسالة تحذير ونصح إلى الأطفال أمثاله، يحذّرهم من عاقبة تعاطي الدّخان..!

قصّة تحمل في طيّاتها قضايا تربويّة عديدة، على رأسها التحذير من مخاطر الدخان والتدخين، لما يسبّبه من أمراض والآم شديدة تنذر أحيانا بالموت، وفيها حث على الصّبر والتحمل عند الابتلاء، وأيضا ترهف مشاعر الإنسان وتلطّف حواسه، عندما نرى تعاطف الأطباء مع المرضى واعتنائهم بهم بشكل ملف للانتباه. كما نلمس في القصّة تلك العلاقة السّحريّة بين

الأم وابنها والتي بفضلها –بعد الله عزّ وجلّ – تمكّن المريض من تجاوز محنته والتماثل للشفاء:

" بعثت زيارة أمّي في قلبي كثيرا من الأمل، وكان لمفعول دعائها في نفسي ما يكون لمفعول أحسن دواء في جسمي، حيث تدفّق الدّم إلى أطرافي بسرعة، واختفت من وجهي تلك المسحة الحزينة وظهر باسما جميلا كما كان قبل المرض ..." ص 9

وفي القصّة نقد للأب المدخِّن، بل المدمن على التدخين، والأستاذ المدخِّن أيضا والمجتمع الذي يشيع فيه التدخين، وأهميّة مصارحة الطبيب، والتزام أوامره وتعليماته، وأيضا التنبيه إلى عواقب التدخين الأخرى؛ وهي تعلّم الكذب والسّرقة ومخالطة أصدقاء السّوء..! ولواحقها الأخرى (المرض والتّشرّد وسوء المظهر). ص 11

قيم تربويّة ومعرفيّة:

نجد في هذه القصّة جملة من القيم الهامة، ذات البعد التربوي والمعرفي، ففيها إشارة إلى دور الآباء والمعلّمين في غرس القيم النبيلة في نفوس النشء، أو تلقينهم السلوك المشين عن قصد أو غير قصد (تدخين الأب، تدخين المعلم، رفقة السّوء الذين يتواصَون بكلّ سلوك مضرّ).

علاقة الطبيب بالمريض وأنّها علاقة مؤثرة جدا وله دور حاسم في العلاج، لاسيما إذا كان الطبيب شريفا وحريصا على أداء مهمّته بنبل وتفانٍ، وأنّ العلاج النّفسي جزء من العلاج المباشر بالدّواء، وكذلك أهميّة النّقاهة في استكمال عمليّة العلاج.

الإشارة إلى دور أفراد الأسرة ، خصوصا الأم والأب في مساعدة المريض على التشافي، وأنّ العاطفة الدّافقة من الأم والأب تحفّز مناعة المريض وقد تكون سببا حاسما في العلاج، فلا يصحّ تجاهل ذلك أو التغاضي عنه.

تقديم معلومات معرفيّة هامة للطفل مثل الحديث عن الأشعّة (الرّاديو) والنقاهة والمصحّة، والهواء النّقي وضرورة كلّ ذلك للعلاج. وأيضا ذكر قصّة اكتشاف الدّخان وأصل تسميته، وذلك بعد رحلة كريستوف كولومبوس إلى أمريكا وعثوره على نبتة الدّخان بجزيرة تسمّى

(تاباكو) وحملها معه إلى البرتغال، وأهدائها إلى الملكة (دي ميسيس) ومن ثمّ شاعت في كلّ أنحاء الكرة الأرضيّة.

البناء في القصّة:

العنوان:

أوّل ما يلفت الانتباه في هذه القصّة هو عنوانها، وهو العتبة الكبرى بطبيعة الحال التي تُفضي إلى مضمون المتن القصصي وتدلّ عليه بشكل مكثّف:

(تاباكو).. اسم على مسمّى هو اسم شخص مريض، يوجد في مصحّة للعلاج من مضاعفات التّدخين والإصابة بالسّل، وسُمي (تاباكو) لأنّه يصرخ مرارا بهذا اللّفظ (تاباكو) أي أنّه يطلب تزويده بالتبغ (الدّخان)، الذي أدمن عليه. وصارت هذه اللّفظة (تاباكو) لازمة تتكرّر في كلّ تمفصلات القصّة، وتعبّر عن مضمونها بعمق لأنّ القصّة تعالج مشكلة التدخين، الذي مصدره التبغ (تاباكو)، وكأنّها لحن جنائزيّ حزين، يتردّد صداه في أرجاء الغابة وقريبا من المصحّة (تاسيليا)، ليشير إلى خطورة هذه المادة السّامة على جسد الإنسان وحياته.

الشخصيّات:

في القصّة شخصيّات عديدة ومتنوّعة، لكنّ الشخصيّة الرئيسيّة هي شخصيّة (**فريد**)، الذي أدخل المصحّة بسبب إصابته بمرض السّل، وبدا شخصيّة إيجابيّة، حيث أراد نصح الآخرين وتحذيرهم مما وقع له بسبب الإدمان على الدّخان، وهو شاب صغير يناسب سنّه الفئة التي وجهت إليها القصّة، وإن كان المؤلّف لا يذكر ذلك بشكل مباشر.

وهناك شخصيّات ثانوية داعمة لبطل الرّواية ، مثل شخصيّة موزّع البريد الذي ظهر في البداية كأنّه البطل الرّئيسي ثمّ بمجرد فتح الرسالة استلم زمام البطولة (فريد)، واختفى موزع البريد نهائيّا ، ثمّ ظهرت شخصيّة الطبيب المتابع، وهو أيضا شخص إيجابيّ وفعّال، كذلك شخصيّة الأم، التي اكتفى بأن أظهرها في مشهد واحد ، ومثلها شخصيّة الأب.

وهناك شخصيّة (**تاباكو**) وهو مريض آخر في المصحّة، وبدا كأنّه شخصيّة رمزيّة أكثر منه شخص مؤثر في الأحداث، ولعلّ الكاتب أراد من وراء إبراز هذه الشخصيّة تجسيد الدخان نفسه (تاباكو) في شخصيّة متحرّكة تصرخ من حين إلى آخر وتنذر بالويل والثبور (تاباكو.. تاباكو..).

التصوير الفني الجميل.

استخدام الكاتب أسلوب الرسائل، الذي هو عادة يوجّه للكبار، ويكون مشوقا وجذابا، وتوظيفه في قصص الأطفال يعتبر شيئا طريفا ومميزا ، وربما عُدّ نادرا في أسلوب الكتابة للأطفال، فبدلا من أن يبدأ القصّة بسرد الأحداث أو التقديم لها بمقدّمة روتينية معتادة، فإنّه جعل أحداث القصّة من بدايتها إلى نهايتها ضمن الرّسالة التي عثر عليها موزّع البريد وقد كتب على الظرف أنّها رسالة موجّهة للأطفال، فأخذها إلى أقرب مدرسة وجعلهم يكتشفون ما فيها.

وعزّز الكاتب ذلك بمشاهد تصويريّة خلابة، عندما وصف المكان الذي توجد فيه مصحّة العلاج (تاسيليا) في مشاهد فاتنة نقتطف منها ما يلي:

المشهد الأوّل:

"كانت الحافلة تقطع بنا الطّريق الملتوي الصّاعد إلى سطح الهضبة عندما أحاط بها ضباب كثيف أعقب سحابة ممطرة ، فظننا أنّها حديقة معلّقة بين السّماء والأرض.."

المشهد الثاني:

"يحلو للطبيعة هنا أن تتباهى بمحاسنها وتتبختر بحللها، كالمرأة الحسناء فتظهر للمقيمين هنا من مرضى وممرّضين وأطبّاء... أحسن ما أودعه الله فيها من الأسرار والعجائب، مثلها كمثل طائر الطّاووس.."

المشهد الثالث:

"اعتاد نسيم الصّباح أن يوقظ الطبيعة من حولنا باكرا، فتتحرّك البراعم الطّريّة النّاعمة وتحرّك معها أغصان الأشجار، فتلامس براعمها موجات الهواء البارد كما تلامس أنامل العازف أوتار العود فترسل ذبذباتها أصواتا جميلة تثير النّشاط والحيويّة في أجسامنا".

في هذه المشاهد البديعة استنطق الكاتب الطبيعة ومسّ معظم عناصرها من خضرة وأشجار ونسيم وبراعم غضّة فاتنة، وجعل القارئ يتفاعل معها بشكل مبهر، ونوّع في استخدام أساليب المجاز والتشبيه والصور البيانيّة بكثافة كبيرة، لا شك أنّها تنبّه الحسّ الجمالي لدى الطّفل وتنمّيه بقوّة، وتعلّمه كيف يتشبّع بمظاهر جمال الطبيعة من حوله..!

اللغة القوية المتينة:

لغة الكاتب لغة عالية حتّى أنّها في بعض عباراتها ربّما تجاوزت مستوى الطفل، بل إننا نكاد نجزم أنّها تصلح أن تكون رواية صغيرة للفتيان، فهي في ستّ عشرة صفحة لكن بخطّ صغير جدا، وبمعدّل عشرين سطرا في الصّفحة، مع عدم وجود الصّور، فالقصّة يمكن أن تكون في حوالي ثلاثين صفحة أو أكثر، ولو قلل من حجم الكتابة في الصّفحات وزوّدت بصور فنيّة تعبيريّة وجمالية، لكانت رواية للفتيان (اليافعين) بلا جدال.

وفي متن القصّة ثروة لغويّة زاخرة يمكن للقارئ (الطّفل) أن ينهل منها ويرفد رصيده المعجمي، ومن تلك الكلمات نختار ما يلي: (هرع/ الكلأ / مزمجرة / يعكّر/ مضطجعة/ تتشمّم/ متوكئة/ زندي/ أنفثها...).

واستخدم عبارات جزلة للغاية في أسلوب أنيق وفخم، يمكن أن ندلّل عليه بهذه الأمثلة النّاطقة:

"والأجمل من كلّ ذلك تلك الشجيرات الفتيّة التي تتطاول تحت أجنحة أمهاتها تنافسها وتسابقها إلى العلا.."

وأيضا:

"اعتاد نسيم الصّباح أن يوقظ الطبيعة من حولنا باكرا، فتتحرّك البراعم الطّريّة النّاعمة وتحرّك معها أغصان الأشجار"

وهذه كذلك:

"فتلامس براعمها موجات الهواء البارد كما تلامس أنامل العازف أوتار العود فترسل ذبذباتها أصواتا جميلة تثير النّشاط والحيويّة"

التصميم والإخراج الفنّي:

ضعف الإخراج الفني، بسبب قلة ذات اليد لدى الكتاب عادة، وغلاء تكاليف الطباعة، فالقصة عبارة عن صفحات مكتظة بالكلمات من غير صور ولا تصميم متقن، رغم جودة المضمون وبراعة الأسلوب.

لكن تبقى القصّة عملا فنيّا جيّدا تحتاج إلى طبعة أخرى تليق بمحتواها وبما بذله فيها الكاتب من جهد مشهود.

قراءة في المجموعة القصصيّة (الحيوانات المغامرة)

لأم سارة (خديجة زواقري)

كتاب لطيف للغاية فيه المغامرة المحبّبة للأطفال، وفيه اللُّغة الرَّصينة الجميلة، وفيه السّرد السّهل والمنمّق الذي يجتذب الأطفال ويروقهم، هي مجموعة قصصيّة للأطفال من تأليف الأستاذة الفاضلة خديجة زواقري المعروفة بـ (أمّ سارة) من عنّابة (الجزائر)، أهدتني (أكمامها) في لطف بالغ وتواضع جمّ على هامش ملتقى الإتحاف الأدبي الرّابع الذي أقيم ببسكرة، فطرت بها فرحا كأنّي طفل صغير، يسعد بأغلى هديّة ويفرح بأجمل تحفة.. صدرت المجموعة في طبعة فاخرة قشيبة تخلب ألباب الأطفال؛ عن اتحاد الكتّاب الجزائريين وبدعم من وزارة الثقافة عام 2009 م. تتألّف المجموعة من خمس قصص رائعة للغاية ضمّت بين دفتيها العناوين التّالية :

—الكناري والزّهار

—حلم زهّار

—الطّاووس المغرور

—الصُّرصور النّبيل

—اللّبؤة الغبيّة

وزوّدت المجموعة القصصيّة بصور ملوّنة ذات بهرج مشوّق وخلاب بريشة حسيبة منغور وحشلفي حمزة وناجم شراد، رافقت الخطّ الجميل في لغته الأنيقة التي تناسب سنّ الأطفال في الابتدائي والمتوسّط، واحتوت القصص على معانٍ رفيعة وقيم أخلاقيّة نبيلة، وحِكم تؤخذ

من تجارب الحياة، لكن جاءت على لسان الحيوانات ومغامراتهم على طريقة كتاب (كليلة ودمنة) لابن المقفّع.

1 – الكناري والزّهار:

قصّة طريفة ذات بعد دلالي عميق، وبإسقاطات رمزيّة قويّة، تروي قصّة قط متوحّش يريد أن يصطاد فريسته من بين طيور البحيرة التي يغشاها من حين لآخر، غير أنّ الطيور كانت ذكيّة فلم يستطع الإمساك بأيّ منها، الأمر الذي دفعه إلى التنكّر في هيئة مزارع، ثمّ قام ببناء بيت قرب البحيرة، وأخذ يغري الطّيور بما يقدّمه لها من قمح مقابل أن تعطيه بعضا من ريشها.

واستطاع أن يغري عصفور الكناري بأن يعطيه كلّ يوم حبتين من القمح، مقابل ريشة من ريشه الجميل، وتفطّن الطّائر زهّار إلى حيلة القطّ الأسود ونصح صديقه الكناري بأن لا يفرّط في ريشه مقابل حبّات القمح المغرية، لكنّ عصفور الكناري لم يستمع إلى نصيحة صديقه، حتّى جاء اليوم الذي فقد فيه كلّ ريشه، فوثب عليه القطّ وهو يقول:

''لقد كنت أطعمك أيّها المغفّل لأتغذّى بك..''

وتحمل القصّة مغزى عميقا، ملخصه أنّ الذي يأكل من طعام غيره يكون أسيره، وقد يصير في يوم ما فريسة له، وهذا حال الأمّة العربيّة منذ سنين طويلة. فإذا غرسنا هذه المعاني والقيم في نفوس أطفالنا كبروا على العزّة والأنفة، وضرورة الاعتماد على النّفس وترك الاعتماد على الأجنبي، بالإضافة إلى ضرورة الاستماع إلى نصائح الأصدقاء والمخلصين والاستفادة منها.

– حلم زهّار:

أمّا القصّة الثانية والتي بعنوان (حلم زهّار) فهي قصّة العصفور (زهّار) المغرور، والذي ظنّ نفسه أنّه قد صار قويّا مثل الأسد، عندما طار من فوق الشّجرة فرآها تهتزّ، فتوهّم أنّ اهتزازها بسبب قوته وثقل جسمه فصرخ قائلا:

''تماسكي أيّتها الشجرة المباركة، فقد أصبحت قويّا مثل الأسد'' وتخيّل نفسه جالسا على عرش الملك وأعلن نفسه ملكا على العصافير وصدّق (وهمه)، إلى أن هبّت عاصفة قويّة أسقطته من فوق عرشه على الأرض مستخذيا..

– الطاووس المغرور:

قصّة الطاووس المغرور لا تبعد كثيرا في معناها ومغزاها عن قصّة (حلم زهّار)، إذ تبيّن لنا عاقبة الغرور، لكن هذه المرّة مع يقظة في آخر لحظة، فقد أعجب الطاووس بريشه المزركش وجسمه الجميل، وصوته الصّادح فتكبّر على أصدقائه وتعالى عليهم متباهيا، فجاءه الثعلب وزاد في غروره، وقال له أنّ صوته أجمل من صوت الدّيك، فلمّا فتح الطاووس فمه وأغمض عينيه وهو يصدح متغنيّا؛ انقضّ عليه الثعلب وأخذه بين فكّيه.

وأدرك حينها الطّاووس مصيره وأنّ الغرور هو سبب ما وقع فيه، فلجأ إلى الحيلة هو أيضا، ليتخلّص من المصير المهلك الذي ينتظره، فقال للثعلب:

''أنا مِلْكُكَ الآن، وأنت الأقوى فلا يخيفك نباح هذا الكلب الجائع، إنّه لا يقول سوى'' هو..هو.. هو ''.. هيّا اصرخ فيه ليهرب من أمامك'' عند ذلك عوى الثعلب فانفلت الطَّاووس..'' طبعا في القصّة درس لكلّ من يصاب بالغرور وتعجبه نفسه، ويتكبّر على الآخرين فإنّ مصيره الهلاك ذات يوم..

– الصّرصور النّبيل:

هي قصّة أشهر من نار على علم، كتبت عدّة مرّات وبأشكال مختلفة، وبأحداث فيها نوع من التغيير والتبديل للحدث الأساسي، وكذلك فعلت المؤلّفة (أمّ سارة)، إذ جعلت الأمور أقرب إلى المنطق، فكان الصرصور تستضيفه كلّ يوم نملة إلى أن مضى الشتاء، وحينها قرّر أن لا يتهاون بعد ذلك في جمع المؤونة، ويسعى إلى الاستعداد للشتاء في الوقت المناسب، وأعدّ كلّ ما يحتاجه من مؤونة وغذاء، وفي ذلك الشتاء القارس نزلت أمطار غزيرة وجرفت

كلّ بيوت النحل والنمل، ولم تجد لها مأوى سوى بيت الصرصور الكريم، الذي رحّب بها وأطعمها وآواها في ذلك الشتاء القاسي.

وكأنّي بالعبرة من القصّة تتلخص في قول النّبي صلى الله عليه وسلّم:

"المؤمن القويّ خير وأحبّ إلى الله من المؤمن الضّعيف''وقوله'' اليد العليا خير من اليد السّفلى"

5- اللّبؤة الغبيّة:

قصّة مختلفة بعض الشيء تتحدّث عن ملك الغابة (الأسد)، الذي أراد السّفر للبحث عن غابة أخرى تعيش فيها الحيوانات بعدما كثر في تلك الغابة اللصوص وانتشرت الحرائق، وترك اللّبؤة المعجبة بنفسها والغبيّة مكانه، وحذّرها من الإنسان فإنّه أخطر المخلوقات على مملكة الحيوانات، لكنّها لم تأخذ بنصيحته، وحاولت أن توقع بحطّاب الغابة، لكنّ العكس هو الذي حدث، فأوقع بها الحطّاب بدهائه ومكره. وجعلها في قفص وقال لها:

''مكانك أيّتها المغرورة هو حديقة الحيوانات..''

القصص حقيقة صيغت بأسلوب جميل جدّا، يتناسب مع المستوى العمري لأطفال المراحل الأربع الأولى من التعليم، وقد برعت الكاتبة في تشكيل الكلمات بدقّة متناهية حتّى يتمكن الأطفال من قراءتها قراءة سليمة، وخالية من الأخطاء التي توقع فيها القصص غير المعجمة.

قراءة نقديّة في ديوان (حديقة الملائكة)

للشاعر : صلاح الدّين باوية

صلاح الدّين باوية[1] شاعر معروف من شعراء الجزائر المعاصرين، تعرفه المنابر الثقافيّة والمهرجانات الشعرية، له عدّة دواوين شعرية مطبوعة ومشهورة، حظي بعدّة جوائز وطنية في أدب الطفل، منها: الجائزة الوطنية الثانية في أدب الطفل المنظمة من قبل وزارة الثقافة، بالجزائر عام 1996م، ومنها هذا الدّيوان الكوكتيل (حديقة الملائكة) الخاص بالأطفال واليافعين، لأنّه جمع بين الشعر الغنائي والشعر القصصي والأبريت،. وهذا التنوّع فيه غنى وثراء يدلّ على قدرات الشاعر واهتماماته الواسعة.

طبع الديوان في (دار الماهر للطباعة والنّشر)، في نحو 117 صفحة عام 2020 م، وقُسّم الدّيوان إلى ثلاثة أقسام، القسم الأوّل خاص بالشعر عامة وقد ضمّ خمسين (50) قصيدة، والقسم الثاني للقصص الشعري بعنوان: (الحمار والبركة وقصص شعرية أخرى)، والقسم الثالث بعنوان: (تاريخي أكبر معجزة أوبيريت شعرية تربوية).

وإلى جانب تنوّع مجالات الديوان بين الشعر (الأناشيد) و(الشعر القصصي)، و(الأبيريت)، فإنّنا نجده كذلك تناول موضوعات شعريّة كثيرة جدا، كلّها تتعلّق بحياة الطفل وبيئته، واهتماماته المختلفة، نذكر منها: (المناسبات المختلفة/الأم/الأب/الشجرة/ النّخلة/ فلسطين/ الأقصى/الحريّة / قصائد وطنية..). ويقول الشاعر في مقدّمته للدّيوان عن ذلك:

" أصدقائي الصّغار إنّ حديقتكم هذه متنوّعة المواضيع، فهي تحتوي على مواضيع تاريخيّة، اجتماعيّة، وعلميّة، وترفيهيّة، ودينيّة... حاولت فيها أن أنتقي لكم من كلّ روض زهرة ".

وأهدى الشاعر ديوانه إلى أبنائه وهو خير ما يُهدى للأبناء، لاسيما أنّه موجّه للأطفال، وعمّم الإهداء أيضا إلى كلّ الأطفال، وتلك هي رسالة الشاعر وهذه هي روح شعر الطفولة المعطاء التي تفيض بالخير وتتدفّق بالنوال بغير تردّد أو انقباض.

---

[1] – **صلاح الدّين باوية من مواليد 18 جوان 1968 م بمدينة المغير، أستاذ الأدب العربي بجامعة جيجل، له عدد من الدواوين المطبوعة، منها: (العاشق الكبير)، 1999، (إلياذة وادي ريغ)2009 ، و(تاريخي أكبر معجزة) 2008.**

جولة سياحيّة في حديقة الملائكة:

أولى قصائد الدّيوان هي درّته التي يستقبل بها الشاعر القارئ (الطّفل)، فماذا كانت..؟

إنّها قصيدة (**الطّفولة**):

هذه القصيدة مدخل طبيعي لديوان موجّه للطفل، يسيح في عالمه، ويعالج موضوعاته، وهذه القصيدة في حقيقة أمرها مقطوعة من ستة أبيات، يمكن أن نوردها لقصرها:

الطفولة:

إنّما الدّنيا جميلهْ ** خيرُ ما فيها الطفولةْ

عالم الأطفال حبٌّ ** وصفاء وفضيلةْ

عالم الأطفال سلمٌ ** وخيالات نبيلةْ

وبراءات وحُلمٌ ** وأمانٍ مستحيلةْ

إنّما الأطفال في الدنيا عصافيرٌ جميلةْ

بلسمُ النّفسِ العليلةْ ** وأزاهيرُ الخميلةْ

أغنية الطفولة تتغنّى بالطفولة، إنّها مقطوعة مناسبة لتكون مدخلا للديوان، وما أروع هذا اللَّحن الذي صنعها عليه من مجزوء الرمل، فكان خفيفا وقعه عذبة نغماته، وتغنى فيها بالطفولة عامة ذاكرا صفاتها وما تتميز به، من سِلْم وخيالات وبراءة الأحلام، والأماني المجنّحة التي تشبه المستحيل، وقد شفعها بأخت لها تحت عنوان: (**أنشودة الطّفل الصّغير**)، بدأها بقوله:

طفل صغيرُ ** يغمرني السرورُ

فحيثما أسيرُ ** يحبّني الجميعُ

يحبّني المعلّمُ ** والأهلُ حينَ أقدمُ

ومن يراني يبسمُ ** كأنّني الرّبيعُ

وتعجبني كثيرا القصائد التي يتولّى فيها الطفل نفسه الحديث نيابة عن الشاعر، وكأنّه هو الشاعر أو لسانه المبين، فيشعر كلّ قارئ من الأطفال أنّها تعبّر عن ضميره وتُبين عن نفسه،

ويذكر الشاعر هنا بلسان الطّفل دوما علاقة الطفل بمن حوله، إنّه محبوب من كلّ النّاس يحبّه المعلم والأهل ويبتسمون له كلّما رأوه كأنّه الربيع حلّ بهم، أو نزل بدارهم.

وهذا التشبيه الجميل للطفل بالرّبيع لم يعدُ الحقيقة، فالأطفال حقّا ربيع الحياة وبهجتها التي تنسي النّاس همومها وأعباءها، وصدق الله حين سطّر في الكون هذه الآية الخالدة:

"المال والبنون زينة الحياة الدنيا"

وقد أُثر من ألغازنا الشعبية قولهم:

" أحلى مْنَاشْ ؟ فقيل جوابا على ذلك: الأولاد يلعبون في لَفْراش"

ثمّ يجعل الطفل يتغنى بخصال نفسه الحميدة فيقول:

طفل أنا مهذّبُ ** محبّب مؤدّب

وصادق لا أكذب ** وإنّني مطيع

وأنا أحبّ العالما ** والسّلم والمكارما

وأكره المظالما ** وبالعلا ولوع

صفات جميلة وأخلاق عالية، ساقها الشاعر للطفل ليتحلّى بها ويفخر، وبدلا من أن يقول له ناصحا، والنصيحة عادة ثقيلة على النّفس، فيقول: كن مهذّبا ومؤدّبا وصادقا مطيعا تحب العالم والمكارم.. فجعله هو من يقول ذلك ويدّعيه لنفسه، لتتسرّب تلك الأخلاق والخصال إلى القلب في غير عسر أو عناء، وبلا تكلّف أو ادّعاء.. !

ولأنّ هذا الزمن زمن رياض الأطفال، تمرّ بها كلّ الأجيال وتنشأ فيها، فكان للروضة نصيب من حديث الشاعر أيضا، وبلسان الطّفل مرّة أخرى؛ إذ يقول:

طفل أتعلّم في الروضة ** أقرأ في صوري المعروضةْ

فجميع الأحرف أرسمها ** ومعاني الأحرف أفهمها

ألف: أبواب العلم هنا ** باءٌ: بادر فالدّرس غِنى

تاءٌ: تاريخك لا تهمل ** ثاء: ثابر للمستقبل

وكأنّ هذه القصيدة أنشئت لرياض الأطفال حتى يتغنّى بها براعمها وينشدون، في مرح وسرور، ويحلّون بأحرف لغتهم ألسنتهم الطريّة، وأفواههم الغضّة النديّة، ولا ينسى الشاعر أن يضمّن هذه القصيدة مقومات الأمة وقيمها العظيمة، من تاريخ ولغة ودين ووطن، فيقول:

أتهجّى لغتي في صوري * * لا أعرف معنى للخور

أتعلّم ماضي أجدادي * * في الروضة أقرأ أمجادي

وطني أهواه وأنشده * * والله الواحد أعبده

وطني لبيك أنا قادم * * فالغد لنا أبدا باسمْ

ومن القصائد اللطيفة أيضا التي ضمّها الديوان؛ قصيدة(هيّا.. بنا للعب)، ولقد نسج على مناولها كثير من الشعراء وبالعنوان نفسه تقريبا، وربما أشهر تلك القصائد قصيدة (هيّا نلعب) للشاعر مصطفى خريف، وكذاك قصيدة محمّد الأخضر السائحي، يقول الشاعر صلاح الدين باوية في قصيدته:

هيّا بنا للعب * * من بعد درس الكتب

عندي من الألعاب ما * * ينسي جميع التّعب

لي لعبة جميلة * * قد اشتراها لي أبي

ولي أنا دراجة * * تسير سير العجب

وهي قصيدة من عشرة أبيات، تحثّ الطفل على اللعب والمرح، من بعد الدرس ومطالعة الكتب، واللّعب حاجة فطريّة في نفس الطّفل لابدّ أن تُلبّى وقد يؤدّي تجاهلها وعدم الاهتمام بها إلى انصراف الطفل عن الدّرس نفسه وكره العلم والمعرفة، وقد أوصى كثير من المربين في العصر الحديث، بضرورة تعليم الطفل بواسطة اللّعب والتسلية، وهي طريقة مثلى في تحبيب العلم للطفل وجعله يقبل عليه بشغف.

يواصل الشاعر صلاح الدّين باوية رحلته في العالم المحيط بالطّفل من ديوان (**حديقة الملائكة**) وينتقي من زهراته وقطوفه اليانعة، فيتغنّى بالتلفاز الذي هو من شواغل الطّفل المهمة التي تشدّه وتجذبه، يظهر مزاياها وخصائصها التي ينفرد بها عن غيره:

صندوق لكن من عجبِ * * فيه من عجمٍ.. أو عَرَبِ

فيه أسرار قد حجبتْ * * وعلوم شتى كالأدب

وعلى ذات المنوال يعرّج حول المذياع يقول فيه:

عندي مذياعٌ في داري * * يسمعني شتّى الأخبارِ

ومن أهمّ القصائد التي تعرض لوسائل التكنولوجيا قصيدة (الهاتف النّقال)، وموضوعها مغرٍ جدا وأكثر جذبا من الحديث عن التلفاز والمذياع، وقد عالجه الشاعر في عشرة أبيات كذلك، بيّن فيها مزايا وخصائص الهاتف النّقال، وأظهر تفرّده في عالم المخترعات، فقال في مطلع هذه القصيدة:

الهاتف النّقالُ * * معجزة تقالُ

في صنعه، في شكله * * يحيطه الكمالُ

ويستعرض الشاعر ما يهمّ الطّفل بالدّرجة الأولى في الهاتف النّقال، الذي صار يسحر الطفل حتى وهو في المهد فلم نعد ندري أمعجزة هو تنهال خيراتها على الإنسان، أم مصيبة تذهب بعقول الأجيال..؟ يقول الشاعر عن أهم ميزاته بالنّسبة للأطفال:

فيه من الألعاب ما * * يحبّه الأطفال

فيه من العلوم ما * * تهفو له الأجيال

لكن استعمال ضمير الشاعر أو المتحدث الذي يبدو كبيرا (راشدا)، يظهر في القصيدة نوعا من التكلّف ومخاطبة الأطفال بصيغة المعلّم العارف وهو أسلوب أقلّ نجاحا في التأثير فيه، بخلاف القصائد التي يكون الطّفل بطلَها ، وهو المتحدّث فيها، والمعبّر عن أفكارها سواء بصيغة المفرد أو الجمع، كما أنّ القصيدة فيها كثير من المباشرة والتقريريّة، التي تجعلها أقرب إلى الكلام العادي الذي لا يصلح أن يتغنى به الطّفل، وكأنّها نظم تعليمي مجرّد من أية لمسة فنيّة.

ولا يمكن أن ينسى شاعر مهما كان، وهو يؤلّف ديوانا للأطفال أن يذكر الأم والأب ويفيض في الحديث عنهما، ومن ثمة جاءت قصيدة (أمّي) و(أحبّ أمي وأبي) وقصيدة (سلام الله يا أمّي)، وهذه القصيدة الأخيرة جاءت في نغم جميل وموسيقى عذبة وتفنّن

الشاعر فيها غاية التفنن، رغم أنّها رثاء وألم وشجن، ولكن صاغها بضمير الطفّل (المتكلّم)، حيث استهلها بقوله:

سلام الله يا أمّي * * لكم اشتقتُ رؤياك

أعيش اليوم في حلمٍ * * تطوّقني ذراعاكِ

فمذُ أصبحت في القبر * * وقلبي بالأسى شاكِ

أمنّيه ولا أدري * * فكيفَ العيش لولاكِ ؟

ولعلّ هذه القصيدة أليق بالكبار أو على الأقل الفتيان (اليافعين)، لأنّها تذكر القبر والموت والحزن الشديد، وتلك أمور لا ينبغي أن يتغنى بها الطّفل أو ينشدها في صغره، ومن الأفضل أن يجنّبها الطّفل في مراحل حياته الأولى، ولا بأس بذلك إذا كان في أوّل الشباب وبداية الفتوّة، فإنّ أمر الموت مما يشغل باله، ويسيطر على تفكيره، فتجد في ذهنه أسئلة كثيرة تبحث لها عن أجوبة، أما قبل هذا السّن فمن الأفضل أن نجنبه قساوة ذلك، فما أصعب أن يقول الشاعر للطّفل الغضّ الإيهاب الطّريّ الجانب:

أتيت اليوم يا أمّي * * حيال القبر أرعاكِ

حملت الوردَ في كفّي * * وقلبي ضاحك باكِ

ورغم ذلك أقول أنّ القصيدة قطعة فنيّة رائعة، فما أروع قوله: (وقلبي ضاحك باكِ)، على ما فيه من ألم وأسى، وما أروع هذا التساؤل حين يقول في البيت قبل الأخير:

متى استيقظت من نومي * * أسائلُ: هلْ سألقاكِ؟

وما أجمل بيت الختام الذي أنهى بها مرثاة أمّه وما تركه موتها في قلبه من لواعج وأشواق، لولا الكلمة الأخيرة فيه التي جاءت ضعيفة بعض الضّعف، ذلك حين يقول:

وهل كالأمس يا أمّي * * ستغمرني مزاياك ؟

فرغم أنّ كلمة (مزاياك) من الكلمات اللّطيفة التي يتمدّح بها الإنسان ويفتخر، إلا أنّها هنا في هذا الموضع أقلّ ما يقال فيها أنّها جاءت عاطلة عن عملها: فـ (المزايا)، خِلال بالمرء كثيرة، هي فيه لا يظهر أثرها في غيرها إلا بنثرها نثرا وذكرها تفصيلا فيما تعود به على غيره، فلو قال طفل: إنّ أمّي ذاتُ عطف وحنان، لكان الأمر تحصيل حاصل ، ولكن لو قال: إنّ

أمي غمرتني بعطفها وحنانها الدافئ، لكان الوصف أقرب إلى الفعل وألصق بالفنّ والجمال..!!

وليكون الشاعر عادلا مع الأب أيضا فلا يختصّ الأمّ وحدها بالذكر فقد ذكر الأب في قصيدة (أحبّ أمّي وأبي)، وخصّ الأب بقصيدة أخرى بعنوان (احك لي في المنام)، والتي جاء في مطلعها:

اروِ من عذب الكلامِ * * يا أبي قبلَ المنامِ

وعطف على هذه القصيدة بأخت لها تحت عنوان (عمت صباحا يا أبي)، قال في مطلعها:

عمت صباحا يا أبي * * يا شمس عمري المعشب

وبهذا يكون الشاعر قد استوفى حقّ الأبوين كلايهما بالقسط والعدل، وإن كانت قصيدة الأب الأخيرة هذه، أمتن فنّا وأعذب لفظا، ولعلنا سنوفيها حقّها من النبش في ملامحها الفنية، حين نعرض للبناء الفنّي في الدّيوان.

ويبلغ الشاعر ذروة الجمال الفنّي حين يتحدّث عن صغيرته، فيطير بها معجبا، ويبلغ بها الثريا في الوصف واستجلاء الخلال والمزايا، ويبدأ بَنَفسٍ سريع لا يكاد ينقطع أو يتوقّف كأنّه نَفَسٌ واحد:

صغيرة محبّبة * * لطيفة مهذّبةْ

لاهية في يومها * * تنطّ مثل الأرنبةْ

باسمة غاضبة * * ثائرة عن مقربةْ

وتأتي بعد ذلك قصائد أخرى متنوّعة الموضوعات متعدّدة الأغراض، نذكر منها قصائد (أنشودة الوطن/ نحن الأشبال/ كشاف مثال التضحية/ الطبيب/ عربي..) وغيرها من القصائد الأخرى، ويمكن أن نقف عند قصيدة (فلسطيني)، وهي في القضية الفلسطينية، التي تعتبر محور اهتمام وانتماء كلّ مسلم وعربي، وتعدّ جزءا من دينه وعقيدته، وتتألّف من ثلاثة عشر بيتا، يستهلّها الشاعر بقوله:

فلسطيني... فلسطيني * * فلي أصلي.. ولي ديني

وتاريخي وأمجادي * * وأجدادي الميامين

ولي شمسي ولي أرضي * * وغاباتي وزيتوني

وهنا نلحظ مرّة أخرى ضمير المتكلّم يعود لصيغة الخطاب في القصيدة، وهو كما قلنا الأسلوب المفضّل في القصائد الموجّهة للطفل إذ يشعر الطّفل أنّه هو المتكلّم وأنّه هو بطل الأحداث والفاعل الرئيس فيها، وقد سعى الشاعر من خلال هذه القصيدة إلى ربط الطّفل بالقضيّة الفلسطينية، وإشعاره أنّها قضيته، وأنّ له الحقّ في الاعتزاز بالانتماء إليها (أصلي.. ديني.. أمجادي)، ثمّ يعبّر الشاعر بلسان الطفل (المتكلّم)؛ أنّه المدافع عن القدس ولا يرضى بغيرها بديلا، وعن فلسطين كلّها ويسعى إلى تحريرها:

هي الحرية الحمراء * * لا شيء يغريني

أنا من نسل "قسّام" * * وأقسم بالملايين

ومن نسل صلاح الدّين * * من أبناء "ياسين"

وانسجاما مع قصيدة فلسطين وتساوقا معها تأتي قصيدة (الأقصى) مُعزِّزة لمعانيها مؤكدة لقيمها وأفكارها، إذ يقول الشاعر فيها:

هو الأقصى ينادينا * * ويستجدي الميامينا

أما من حازم فينا * * يصون العرض والدينا ؟

وكتب الشاعر صلاح الدّين باوية قصيدة في ابنه عمر البشير، ولطاما فرح الشعراء بأبنائهم حين يولدون فيهلّلون لميلادهم ويستبشرون، ويتركون لنا آثارا خالدة على مرّ الأجيال في علاقة الأبوّة الشاعرة بالبنوّة الملائكيّة، وكانت قصيدة شاعرنا بعنوان (عمر البشير)، قدّم لها بقوله:" إلى فلذّة كبدي عمر البشير في يوم مولده" واستهلّها بهذه الأبيات:

عمر البشير أتيتنا: يا مرحبا * * فاح السّرور ببيتنا ما أطيبا

البيت نشوانٌ يضوع محبّةً * * غنّى المواويل العذاب فأطربا

الياسمين ببابه مترنّحٌ * * والمسك والرّيحان فيه اعشوشبا

وهي قصيدة مؤلّفة من ثلاثة عشر بيتا، فيها صور جميلة وتنبجس بمشاعر فياضة تعبّر بعمق صافٍ عن عاطفة الأبوّة القويّة، بلغة محكمة وألفاظ منتقاة بعناية، لكن أهمّ ملاحظة يمكن أن تُلفت انتباه الدَّارس إليها هي أنّها ليست موجّهة للأطفال، ويصعب علينا أن نصنّفها في

أدب الأطفال، فلغتها وخطابها وأسلوبها أليق بما يخاطَب به الكبار، وبشيء من التَّجاوز يمكن أن ندرجها أيضا فيما يوجّه للفتيان (الشباب اليافعين)، وعدد كبير من قصائد الديوان على هذا النهج.

ولعلّ الشاعر أراد من هذه القصائد أن يتحدّث عن الطفل ويكون مضمونها له علاقة بالطفولة، لا أن توجّه إليه فينشدها ويتغنّى بها، وربّما كانت قصيدة (آية الرحمن بشرى) أقرب إلى الطّفل من غيرها، فهي خفيفة النغم قريبة المعاني إلى حدّ ما، يقول فيها:

كان أحرى.. ثمّ أولى * * أن يجيء الشعر سهلا

كلّ شعر دون — أطفا (م) * * لنا – قول ليس إلّا

إنّ ذا يومٌ سعيدٌ * * بالمسرّات أطلا

آية الرّحمن بشرى * * عيد ميلادك هلّا

وبهذه القصيدة يُختَتَم الجزء الأوّل من الدّيوان الذي يشمل موضوعات متعدّدة ومتنوّعة؛ ليشرع الشاعر بعد ذلك في الجزء الثاني الذي خصّصه للشعر القصصي، وهو من أكثر الشعر جذبا للطفل والأقرب إلى ذائقتهم، وسنقوم بجولة أخرى في رياض هذا الجزء من الدّيوان نستجلي ملامح معانيه ونسبر غور أفكاره، ونفتّش بلهفة من مواطن الجمال والبهاء فيه:

كان هذا الجزء بعنوان:

(الحمار والبركة وقصص أخرى للأطفال)

وتضمّن هذا الجزء؛ خمس قصص شعريّة، هي على التوالي: (الحمار والبركة/ والثعلب وغابة الأمان/ والقطّ والفأر/ الأفعى والبقرة/ الأرنب الصّغير)، وتبدو كلّها من خلال عناوينها أنّها على طريقة الأقدمين في كتابة حكايات الأطفال، شعرا ونثرا وهي الحكايات التي بدأها ابن المقفع في كليلة ودمنة، وبرز بعضها في قصص ألف ليلة وليلى، وملحِ العرب في العصر الجاهلي وغيرها، وقد أحياها شعرا أمير الشعراء أحمد شوقي، وعرف بها في الجزائر من المعاصرين الشاعر الفحل عمر علواش (الجزائر)، وجمال محمّد عمرو من الأردن، وغيرهم من كتّاب أدب الطّفل، وسمّى الشاعر هذه المجموعة باسم أولى قصصها الشعريّة: **(الحمار**

والبركة). ويتميّز هذا النّوع من القصص بعدّة عناصر فنيّة هامّة، نذكر منها: (الطرافة والغرابة، الحكمة، والموعظة من خلال التجربة التي يعيشها أبطال القصّة).

قصّة الحمار والبركة:

تتألّف هذه القصّة من اثنين وعشرين بيتا، من مجزوء الرمل، تتحدّث عن حمار جبان، وجد أمامه – وهو يسير – بركة ماء ظنّها بحرا عميقا(!!)، فخشي على نفسه الغرق والموت في ذلك البحر المخيف وصوّرت له نفسه صورا مرعبة وخيالات مفزعة، وبدأ يحاور نفسه في ارتعاب شديد، وظهر في ذلك الحوار الذاتي مدى غرور الحمار وشدّة إعجابه بنفسه رغم الجهل والحمق والجبن الشديد، يقول الشاعر في تلك القصيدة:

كان في يوم حمارٌ * * سائرا بين الطّريقْ

فرأى بركة ماءٍ * * ظنّها بحرا عميقْ

قال: من أين سأمضي ؟ * * إنّه الموت السّحيق

ويلاحظ أنّ الشاعر اعتمد على الأسلوب القديم (التقليدي) في استهلال قصّته الشعرية، فاستعمل ألفاظ الحكي المعتادة (كان في يوم..) وهي من جنس (كان يا ما كان) و(في يوم من الأيّام)، وربّما قال بعض النّقاد أنّ هذه الطريقة صارت عتيقة جدّا ولا تلبي حاجة الطّفل في العصر الحديث، ولا رغبته في سماع أساليب مبتكرة في السّرد القصصي، والحقيقة المجرّبة والتي عايشناها طويلا مع مختلف أجيال الأطفال، أنّ هذه الطريقة ما تزال تحتفظ ببريقها ومشحونها السّحري التي تختزنه ألفاظها وكأنّها أنزلت مع آدم من الجنّة.

ثمّ إنّ الكاتب وشّح القصّة بالحوار الدّاخلي (الذّاتي) الذي أضفى على النّصّ بُعدا حكائيا مختلفا، بحيث لا يبقى السّرد جامدا في مستوى واحد، هو المستوى الخارجي، الذي يتولى فيه الرّاوي تبليغ القارئ أو السامع بتطورات الأحداث، بالإضافة إلى المحسّنات البديعية التي سنتحدث عنها بعدُ.

القصّة فيها طرافة وفيها (خفّة دم) كما يقال بتعبيرنا الدارج الحديث، وقد وفّق فيها الكاتب أيما توفيق، وشحنها كذلك برسالة قيمية لطيفة وهي أنّ الأوهام قد تصور السّهل صعبا

وتجعل من الحبّة قبّة، كما أنّ العُجب والتيه بالنّفس قد يعبث برأس صاحبه ويذهب به مذاهب شتى.. ! وأكثر ما يتجلّى ذلك في قول الشاعر:

أحمل الأطنان من قمحٍ،.. ** وتمرٍ، ودقيق

يمتطيني الطّفل والشيخُ.. ** وما منهم شفيقْ

غرّهم منّي أنّي * * أبدا دوما رشيق

فهم لو أنصفوني كنت بالتّاج خليق.

وفي قصيدة: **الثعلب وغابة الأمان** نوع من إعادة الإنتاج لقصّة (الثعلب والديّك)الشهيرة، التي يخدع فيها الثعلبُ الدّيكَ عندما يصف صوته بالحسن ويطلب منه الغناء، ثمّ ينقض عليه ويأكله، ولقد نسج على منوالها كثير من الشعراء. ونحا شاعرنا نحوهم وسار على نهجهم، ولكن لكلّ بصمته وتميزه وأسلوبه الخاص الذي يدلّ عليه، ويُظهر قدرته الإبداعية، وهذه القصيدة تتألف من ثمانية عشر بيتا، يستهلّها الشاعر بالأسلوب القصصي المعروف، الذي أشرنا إليه آنفا:

يروى بأنّ غابة الأمانْ * * يحيا بها السّكان في اطمئنان

الكلّ فيها عامل في يومه * * ونافع لنفسه.. وقومه

الدّيك والغزال والخنزير * * والقنفذ الصّغير والبعير

مجتمع يقدّس الأعمالا * * وينبذ الخمول والكُسالى

وفي هذه المقدّمة نظرة عامة وإطلالة شاملة لواقع الغابة وما يسودها من أمن وسلام، وهو تمهيد قصصي عل سَنَن الأقدمين أيضا، لا تشوبه شائبة، ثم يوغل الشاعر في سرد الأحداث وما وقع لأهل الغابة فيها من مجيء الثعلب وادعاء الملك ومحاولته السيطرة على مجتمع الغابة وما فيها، مفتخرا بنفسه معتدا بقوّته، إلى أن تصدّى له أهون حيوان وأضعفه في هذه الغابة، فهزمه شرّ هزيمة وأذاقه الذّل والهوان. وذلك حين يقول الشاعر:

وانقضّ فوق القنفذ الصّغير * * في عالم منقطع النّظير

وهمّ أن يقتله في الحين * * واحسرتا للقنفذ المسكين

فصدّه القنفذ بالأشواك * * فألهك الثعلب شرّ هلاك

كذاك إن أوتيت بعض قوّة * * لا تزدري الضّعيف بالفتوّة

قصّة فيها حكمة وفيها عبرة، يستفيد منها الطّفل أنّ القوّة مع الظلم تردي صاحبها وتهلكه لا محالة، ويعلم أنّ القوّة ليست في الجسم الضخم وحسب، بل للعقل في ذلك نصيب من ذلك أوفر، وقَسَم أقسط.

ومن الحكايات الشعرية اللّطيفة والقيّمة التي أثبتها الشاعر في هذا الجزء، جزء الحكايات الشعريّة، قصّة (القطّ والفأر) وقصّة (الأرنب الصّغير)، وكلتا القصّتين تتحدّث عن سذاجة الحيوان الضّعيف وكيف يحتال عليه حيوان قوي بمعسول الكلام فيفترسه، وهاتان القصّتان تشبهان إلى حدّ ما قصّة (الدّيك والثعلب) لأحمد شوقي، لكنّهما تختلفان معها في الخاتمة، فقد كانت خاتمة قصّة أحمد شوقي الشعرية سعيدة وفيها نجاة للدّيك الذي تفطّن لحيلة الثعلب ومكره، حين قال مخاطبا رسول الثعلب:

فَأَجابَ الديكُ عُذراً * * يا أَضَلَّ المهتَدينا

بَلِّغِ الثَعلَبَ عَنّي * * عَن جدودي الصالِحينا

عَن ذَوي التيجانِ مِمَّن * * دَخَلَ البَطنَ اللَعينا

أَنَّهُم قالوا وَخَيرُ ال * * قَولِ قَولُ العارِفينا

مُخطِئٌ مَن ظَنَّ يَوماً * * أَنَّ لِلثَعلَبِ دينا

بينما كانت خاتمة قصّتي الشاعر صلاح الدّين باوية مأساوية، فانتهت بانتصار القطّ على الفأر وانتصار الثعلب على الأرنب، يقول الشاعر في قصيدة (القطّ والفأر):

في زمان الغابرينْ * * منذُ آلاف السّنينْ

التقى القطّ بفأر   صدفة في العابرين

قال: مرحى يا صديقي   يا حبيب الصّالحين

إنّني أكبر دوما   فيك روح الطيبين

وكالعادة في مثل هذه القصص الشعرية بدأ الشاعر الحاكية باللّفظ المعروف والذي يُشتقّ منه اشتقاقات عدّة ترجع كلّها إلى أصل واحد وهو (**في زمان** الغابرين) والتي تعني في الزمن الماضي أو فيما ما مضى، وهي من عائلة (كان يا ما كان)، وقلنا عنها أنّا من العبارات المحبّبة للأطفال، وتبقى محبّبة لديهم دوما رغم إغراء الفضائيات والهواتف الذكيّة واللّوحات الإلكترونية وغيرها، وقد جرّبتُ ذلك بنفسه مرّات عديدة، وكان أبنائي يشاهدون رسوما متحرّكة على التلفاز، فقلت ممازحا:

(كان يا ما كان..) فالتفت إليّ الأولاد وقالوا واصل واصل يا أبي.. !

ووجدت أنّ السّرد المباشر، أي مشافهة الأطفال بالقصّة من فم شخص كبير، لا يكاد ينافسه شيء في عالم القصّة والحكاية، ولذلك بدأت تنتشر قصص (الحكواتي) في الفضائيات وفي المراكز الثقافية والأنشطة الترفيهية ويُقبل عليها الأطفال بلهفة وشوق كبير..!

واستمر القطّ في مداهنة الفأر والاحتيال عليه ومخاتلته إلى أن وجد الفرصة المناسبة فانقضّ عليه وأكله:

فاقترِبْ منّي أقبّلك، * * رجاء في الجبينْ

انحنى الفأر فأضحى * * في عداد الميّتين

فغدا قولا مشاعا * * حكمة للغافلينْ

لن يحبّ الفأرَ قطٌّ * * أبدا في العالمين

قصّة جميلة وطريفة ساقها الشاعر في سبعة عشر بيتا، بأسلوب خفيف مشوّق، على نغم رتيب يحسن وقعه على السمع، وفيها حكمة وعبرة بالغة للطّفل، وعلى منوالها جاءت قصيدة (الأرنب الصّغير)، وبهما نختم الحديث عن جزء الحكايات الشعريّة، ونتقل إلى الأوبريت التي تمثل وحدها الجزء الثالث من ديوان: (حديقة الملائكة).

أوبريت (تاريخي أكبر معجزة):

وكتب الشاعر تحت العنوان؛ (أوبريت شعريّة تربوية)، وفي العنوان مباشرة ظاهرة، ولكنّها مقبولة في أدب الطّفل، فالطفل عادة يخاطب بالأسلوب المباشر، ولا يلجأ كثيرا إلى الرمز أو التورية والأسلوب المجازي إلا بمقدار محدّد.

والأوبريت نوع من المسرح الغنائي وهو محبّب للأطفال، لما فيها من تمثيل استعراضي تصاحبه الأغاني والحركات الإيحائية، وإذا كان شعريا خالصا وتربويا كان أكثر نفعا وفائدة للطفل، وهذه الأوبريت من مشهد واحد أهداها الشاعر لأبنائه وكلّ أطفال الجزائر.. وقد أشار الشاعر في الهامش إلى أنّ هذه الأوبيريت فازت بالجائزة الوطنية الثالثة في مسابقة أدب الأطفال لوزارة الاتصال والثقافة سنة 1998م، وهذا أحد المؤشرات الهامة على قيمتها الفنيّة.

تبدأ الأوبريت بمشهد عودة الأبناء الأربعة من المدرسة ودخولهم على أبيهم وهو يقرأ الجريدة، فيسألونه في حيرة واستغراب عما حدّثهم به أستاذهم عن تاريخ بلادهم، وقد وجدوا في ذلك صعوبة بالغة، فيأخذ الأب دور الأستاذ (المربّي) ويشرع في الحديث عن تاريخ الجزائر، ولكن بأسلوب مختلف، في تشويق وإغراء، يبدأ من قصّة الأسطول البحري الجزائري الضخم، وبطولات عروج وخير الدّين؛ قائدي ذلك الأسطول الأسطوريّ، ثم ينتقل إلى الثورات الشعبية، مع ذكر أهم المحطّات في تاريخ بلادنا، بأسلوب خفيف الوقع شديد الرّجع.

يقول الشاعر في مطلع هذه الأوبيريت على لسان ابنه عبد القادر:

قال لنا المعلّم * * اليوم ما لا نعلم

قال لنا يا والدي * * إنّ البلاد أنتمُ

تاريخكم نور لكم * * وجهله محرّم

ويردّ الأب مؤكدا كلام المعلّم:

أولى بكم أن تقرأوا * * تاريخكم وتعلموا

فأنتم الجيل الذي * * تغار منه الأنجم

ويتدخل الابن الثاني فيقول:

قد قال معلّمنا بالأمس * * وعزّة فخر في صدري

أن كان لنا الأسطول الضّخم * * وكنّا السّادة في البحر

وتلخّص الأوبريت تاريخ الجزائر المجيّد في شكل حوار بين الأب وأبنائه الأربعة (عبد القادر وجعفر وخير الدّين وفاطمة) وتشارك الأمّ أبناءها في حوارهم الرّائع مع أبيهم، وتختم الأوبيريت بشكر عبد القادر أباه وأمّه على هذا الدّرس التاريخي الرائع قائلا:

شكرا عن درسك يا أبت * * وجزيل الشكر لوالدتي

لن أنسى فضلكما أبدا * * أدركت معاني حرّيتي

إلى أن يقول: لا أطرق رأسي.. لا أبدا * * أمشي مزهوّا في ثقة

وأجيب السّائل عن مجدي * * " تاريخي أكبر معجزة "

وتجربة الأوبيريت مع الأطفال لا تزال غضّة طريّة في بلادنا، رغم قدمها النّسبي، وقلما نجد من يتفرّغ لها ويستفرغ فيها جهده لأبنائنا، وقد أحسن الشاعر صلاح الدّين باوية اختيار موضوع الإوبيريت، إذ خصّصه لجانب هام من تاريخ الجزائر الحديث، مشيرا إلى أمجادنا القريبة في البحر الأبيض المتوسّط، وكيف كان الأسطول الجزائري يجعل من هذا البحر، بحيرة إسلامية كما يقال.

ولم يقتصر الشاعر على التاريخ وحده يسرد وقائعه وبطولاته، بل التفت أيضا إلى قيمنا الأخرى وغمس قلمه فيها مضمّخا بدماء الشهداء والعلماء، وعلى رأس هذه القيم اللغة العربية التي هي صمام أمان وحدتنا، وذلك حين يقول الشاعر بلسان أحد الأبناء الأربعة (عبد القادر) – ولهذه التسمية رمزية الإيحائية في التاريخ لا تخفى على أحد – :

أصبحت أنا الآن حرّا * * أتكلّم في وطني لغتي

لا أطرق رأسي.. لا أبدا ** أمشي مزهوّا في ثقة

وأجيب السّائل عن مجدي * * " تاريخي أكبر معجزة

وهذه ثلاث قيم خالدة بدونها لا يكون الجزائريّ جزائريّا، وهي (الوطن واللغة والتاريخ) فضلا عن الدّين، الذي لا تساوي الحياة بدونه شيئا..!

البناء الفنّي في ديوان حديقة الملائكة:

أجمل ما في هذا الدّيوان هو هذا التنوّع في أشكال النّصوص الموجّهة للطفل، والطفل عادة سؤوم ملول، لو كتبنا له على نمط واحد وطريقة واحدة لا نعدل عنها؛ لملّ وانصرف حتى ولو قدّمنا له الشهد الخالص والرضاب المنقى، ولذلك يلجأ الشاعر إلى تنويع إبداعه وتغيير أشكاله ليحقق الغاية المرجوة في بناء شخصيّة الطفل فتكون متكاملة من جميع جوانبها، الثقافية والمعرفية والتربوية والفنيّة والجمالية، ففي القصائد الأولى من الجزء الأوّل طاف الشاعر

حول موضوعات شتى لها سبب وثيق بحياة الطفل ومحيطه، وفي الجزء الثاني قدّم له مجموعة من القصص الشعريّة الجميلة، التي وفق الشاعر في تأليفها بشكل كبير سواء على مستوى البناء الفنّي أو من حيث اختيار الموضوع.

وتمنّيت لو أنّ الشاعر أفرد لنا ديوانا خالصا للقصص الشعريّة، فهي مؤثرة في الطّفل وتقدّم التسلية النافعة والمعرفة المفيدة والتوجيه غير المباشر للطفل، في قالب جدّ فتّان، أما الأوبريت فهي ختام المسك كما يقال، فجاءت هادفة جميلة جدا، وتصلح أن تمثل في المدارس والمؤسسات التربوية بكلّ سهولة ويسر.

اللّغة والأسلوب:

لغة الكاتب لغة معتادة لدى الطّفل لم تعدُ محيطه الثقافي والمدرسي، وهي اللّغة الشائعة في وسائل الإعلام ووسائل التواصل الاجتماعي، ومع ذلك فإنّ الكاتب الرّسالي يطعّم لغته دوما بما يرفع من مستوى الطّفل، ويثري مخزونه المعجمي، وقد نحا الشاعر صلاح الدّين باوية هذا المنحى، وكان من حين إلى آخر يزين قصائده بمثل ذلك المخزون اللّفظي العالي، مثل هذه الطائفة من التعبيرات والألفاظ:(بلسم/ العليلة/ الخميلة/ وضاعة / الطامح / للجوزاء / كثب / الحقب/ الهدب/ هائمة / هدهدتني/ الحقب/ لنغتدي / المحيّا / رافلا...).

وهو معجم لفظي متنوّع وزاخر يمكن أن يمثل نسبة 10 بالمئة أو أكثر من مجمل نصوص الدّيوان، وهي نسبة معقولة وضرورية للطفل ليوسّع من رصيده اللغوي، وينوّع في ثروته المعجمية، لاسيما إذا كان طالبَ علم، أو شادي ثقافة ينهل منها حيث وجدها.

كما استعمل الشاعر أسلوب المجاز والصور الفنيّة بمقادير محدّدة، تبعد عن قصائده المباشرة الخالصة التي تضعف النّص وتوهن من البناء الفنّي للشعر، وفي الوقت نفسه لم يبالغ فيها إلى حدّ يصبح الخطاب موجها للكبار، عدا بضع قصائد أشرنا إليها سابقا، وكان أولى أن توجّه للكبار، ومن هذه القصائد نذكر: (سلام الله يا أمّي/ سنحبّ الأرض هنا أكثر/ عمر البشير/ الطبيب...).

ولكن أغلب القصائد مناسبة للطفل فكرة وموضوعا وبناء فنيّا، ونسوق من أمثلة التعبيرات المجازية ما لفت انتباهنا فيها من حيث التكثيف وقوّة الإيحاء:

يقول الشاعر في قصيدة (الطفولة) ص12:

إنّما الأطفال في الدنيا عصافير جميلة

بلسم النّفس العليلة وأزاهير الخميلةْ

ورغم أنّ التشبيه في البيت الأوّل معتاد وشائع، لكنّه من نوع الأساليب الأدبية التي لا تَخْلَق على الزمن، ولا تذهب جِدّتها بيسر، لأنّ عناصرها ذاتها هي في الحياة دائمة التجدّد، تتوقّد ألقا وحيويّة.. ! وفي البيت الثاني صورة مركبة مذهلة، فيها كناية عمّا يشعر به الإنسان من راحة بال، وصفاء نفس تشبه الاستشفاء برؤية الأطفال والتمتع بمراقبتهم في لهوهم ولعبهم، وفي الشطر الثاني من البيت تشبيه بليغ للأطفال بالأزاهير وتوكيد لفظي على أنّ هذه الأزاهير جميلة، رغم أنّها بطبعها جميلة، وإلا لما كانت أزاهير، ولكنّ تفاوتها في الجمال يقتضي تأكيد هذا الجمال.

واستعان الشاعر أيضا بالمحسنات البديعية، التي تجعل من النّص كأنه تحفة فنية نادرة، يتفجّر جمالها تفجرا وتزيد معانيها ألقا وبيانا، ومن تلكم المحسنات، نذكر التصريع الذي يلجأ إليه الشعراء كثيرا كأنّه من مستلزمات الجمال الفنّي التي لا تغيب عن القصيدة أبدا، وهذه أمثلة عنه:

نجد التصريع في مطالع كثير من القصائد، منها قصيدة (كرة القدم)، حيث يقول الشاعر:

كرة القدم * * منذ القدم

وحرف الميم هنا بين (القَدم والقِدم) من أجمل الحروف وقعا وتأثيرا موسيقيا، وجذبا للقارئ للتغني بالقصيدة وترديدها، وفي قصيدة (التلفاز) يقول الشاعر:

صندوق لكن من عجبِ * * فيه من عجمٍ.. أو عربِ

ولهذا التصريع بين كلمتي (عجب وعرب) قوّة مدهشة وتأثير مذهل، يُحكِم به الشاعر النسج الفنّي ويجوِّده تجويدا، وفي قصيدة (عندي مذياع في داري) يقول:

عندي مذياع في داري * * يسمعني شتى الأخبارِ

وفي قصيدة (احكِ لي قبل المنام) يقول:

ارو من عذب الكلامِ * * يا أبي قبل المنامِ

ولا يقتصر الأمر على هذه القصائد بل هناك قصائد أخرى غيرها يستهلها الشاعر بالتصريع فيحلّيها في فم القارئ ونظره معا، فنجد التصريع أيضا في قصيدة (أصلّي صلاتي)، وهي مقطوعة من خمسة أبيات، ومثلها قصيدة (رحاب المسجد) التي تتألف من تسعة أبيات يبدأها بقوله:

هيّا بنا لنغتدي * * إلى رحاب المسجد

فقد دعانا الله * * ومن لنا سواه؟؟؟

نؤدّ ما علينا * * لله طائعينا

نقوم للصّلاة * * في كافة الأوقاتِ

وحتى الأوبيريت الشعرية يستهلها بالتصريع في قوله:

أهلا أبناء الحريّةْ * * يا أمل الأمة العربيّةْ

ونجد الجناس الناقص في قصيدة (الثلج) في مثل قوله:

نجري أو نقفز في الثلج * * ما بين الربوة والمرج

والجناس بين لفظتي (الثلج والمرج)، وفي قصيدة (أحب بلادي) يقول:

عشقت لديك* * صنيع يديكِ ص 50

ونجد شيوع الطباق في الديوان بشكل لافت مثلا في قصيدة (جاء المطر) نجد الطباق بين لفظتي (غابوا /حضروا)، ولفظتي (البدو /الحضر) من قصيدة النخلة، ولفظتي (يقبل يدبر) من قصيدة (مُهري) ص 49 وقصيدة (جزائري) نجد فيها لفظتي (هادئ /ثائر) 49.

كما نجد التكرار في قصيدة (مُهري) حيث يقول الشاعر:

حاشا.. حاشا * * أن يتعثر

ويقول:

أنا أعشقه* * أكثر.. أكثرْ

وفي قصيدة (جزائري) يعمد الشاعر إلى تكرار لفظة (جزائري) التي هي محور القصيدة، ولفظة (أنا) كما يكرر لفظة (بلادي) في القصيدة التي تليها، قصيدة (أحبّ الجزائر)

ص50، وفي ذلك عزف بديع على وتر الوطنية والانتماء للوطن. وتكرار لفظ (أنا) توكيد قوي على هذا الانتماء واعتزاز به لا يتزعزع.

وفي قصائده القصصية يصوغ الحِكم السائرة مثل قوله من قصيدة (الثعلب وغابة الأمان):

كذاك إن أوتيت بعض قوّة * * لا تزدري الضّعيف بالفتوّة

وفي قصّة القط والفأر الشعرية يختمها بهذه الحكمة:

لن يحبّ الفأرَ قطٌّ * * أبدًا في العالمينْ

كما نجد التناص واضحا في قصّة (القطّ والفأر) الشعرية مع قصيدة أحمد شوقي (الدّيك والثعلب). فكلّ هذه العناصر الجمالية وغيرها مما يصعب تتبعه بالتفصيل إلا بقراءة معمّقة ومستفيضة؛ جعل من الديوان تحفة فنية وحديقة زاخرة بالجمال تسعد الصغار والكبار في آن معا.

الفهرس